عـــــشماوي

عشماوي

رواية

نبيل صبري

تصميم الغلاف: محمد عيد

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع:25685 /2015

I.S.B.N: 978-977-488-426-9

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،

المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 - 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 20016 م

عشماوي

نبيل صبري

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى زوجتي.... قطعة الآيس كريم الدافئة



1

أحيانًا كثيرة تفقدُ بصيرتنا الضعيفة قُدرتها على رؤية الحدِّ الفاصل بين ما تُمليه علينا ضمائرنا القاسية بآرائها المُتشدِّدة وما تُمليه علينا غرائزنا بشبقها الأزلي، فتَفقد نفوسٌ كثيرة آدميتها وتتحرك كدواب الأرض مدفوعةً بغرائزها اللامُتناهية نحو أبعادٍ تُفقدها المزيد من الآدمية، لتحيا في دائرةٍ مُغلقة لا نهايةَ لها من الغرائز والمُحاولات المُستحيلة لتحقيقها!

غريزةٌ واحدةٌ – بريئة – كانت تدفع ذلك الطفل الصغير بملابسه الرثة وملامحه الشاحبة الكالحة وروحه المُمزقة للدخول إلى أحد المَحال الذي تُزينه صورة "هارلند دافيد ساندرز"، ذلك الرجل العجوز الشهير، ذو الشيب الأبيض، الذي ترمُز صورته لأشهر محلات الدجاج المقلي..

إنها غريزة الجوع!

كنُقطةٍ سوداء لطخت قِطعةً من القماش ناصعة البياض، كان مظهر ذلك الطفل الذي يسيل لُعابه لرائحة الطعام الشهية بين رواد المحل، وقبل أن يتمكن من الاقتراب كثيرًا دفعه أحد عُمال المحل بقسوة، وهو ينعته بأقذع الألفاظ، لاعنًا تلك البذرة الشهوانية اللعينة التي بذرها أحدهم في الأرض الجدباء لإحداهن، لتنبت تلك الآفة الصغيرة... طفل الشارع!

لم يملُك الصغير من أمره سوى أن يقِف خارِجًا مع أقرانه خلف زُجاج المحل الأمامي، ينظُر باشتهاء إلى ما يسد رمقهُ ولا تطاله يده! وما إن رأى أحد الأطفال من أقرانه واحِدًا من عُمال المحل يقوم بإلقاء بقايا الطعام في صندوق القمامة الضخم الموضوع إلى جانب المحل من الخارج، حتى التفوا جميعًا حوله ليُشاركوا أسراب الذُباب في وليمتهم الأثيرة!

خرج أحد رواد المحل مع فتاته الحسناء المُثيرة مُتخَمًا بعدما قام بافتراس دجاجة أو ما يزيد من دجاجات العم "ساندرز"، وضغطَ واحِدًا من أزرار جهاز تحَكُمٍ صغير مُعلق في ميدالية مفاتيحه الذهبية، فأضاءت سيارة مرسيدس حديثة الطراز من إحدى السيارات المُتراصة في الساحة الواسعة المُقابلة لواجهة المحل، مُعلنَةً استعدادها التام لتحتويه وفتاته المُثيرة داخلها!

جلسَ خلف مقود السيارة وأشعل لفافة تبغ أجنبية الصُنع، وقبل أن يُدير مُحرك السيارة فوجئ بواحِدٍ من تلك الكيانات الشيطانية

البغيضة يقف أمام باب السيارة ويُطِلُّ بوجهه الشاحب المُشرد من النافذة، «حسنة قليلة تمنعُ الكثير من البلاء»، قال الصغير باستجداء، فحدجه الرجل بنظرة نارية مُشمئزة كمن ينظُر إلى إحدى الحشرات المُقززة السامة، وضغط أحد الأزرار المُتراصة إلى جانب باب السيارة، فارتفع زُجاجها الأمامي ليُشكل حائلًا بينه وبين تلك الجُثة المُتعفنة التي تزكم رائحتها العَفِنة أنفه المُتشبِع قبلًا بروائح أجود العطور العالمية وأبهظها ثمنًا!

وقبل أن ينطِق ذلك الصغير اللعين بكلمة استعطاف أُخرى، أدار الرجُل مُحرك سيارته وضغط دواسة الوقود بقوة، فانطلقت السيارة مُسرعةً بإتخامِها وإتخام راكبيها، تاركةً وراءها الصغيرَ الجائِع بمذلتهِ وجوعه!

***

نظرت "ميادة" إلى الخاتم الذهبي الذي يُحيطُ بإصبعها وابتسمت في سُخرية مُتذكرة كيف كان هذا الخاتم هو ما دفعه "وائل الشريف" ثمنًا لعُذريتها التي أفقدها إياها الأسبوع الفائت!

خاتمٌ ذهبي وختم عُذريتها... تُرى أيُهما أبهظُ ثمنًا؟!

تُدرك "ميادة" جوانب صفقتها مع "وائل الشريف" جيدًا، وتعلم أنها باعت جسدها، وقدمت ختم عُذريتها لذكَره الشبِق مُقابل ذلك

الخاتم الذهبي اللعين، ويا له من ثمنٍ بخس! ولكنها استطاعت خلال أسبوعٍ واحد من فقدانها أثمن ما تملُك أن تملُك أثمن الأشياء!

خاتم ذهبي.. مبلغ مالي كبير.. سيارة أنيقة حديثة الطراز، كما قام "وائل الشريف" بترقيتها في عملها بشركة والده رجُل الأعمال الشهير "إمام الشريف"، والتي يُديرها "وائل"، وأخيرًا حصلت منه "ميادة" ليلة أمس على شقة فخمة بجوار مقر الشركة، في إحدى البنايات التي يملكها، وهي تعلم جيدًا أنه يعشق مُضاجعتها في المكتب كما أخبرها من قبل، فذلك يسبب له قدرًا أكبر من الإثارة، ولكنه ما وهبها تلك الشقة الفخمة إلا ليتذوق جسدها وقتما يشاء بعيدًا عن العيون الفضولية في المكتب أو أي مكانٍ آخر قد يُثير الشبهات حول علاقته بها، أما الآن – وقد أصبحت هي مالكة إحدى الشقق وهو مالك البناية بأكملها – فوجودُهما مُبَرَّرٌ معًا في مكانٍ واحد.

ليلة أمس!

داعبت "ميادة" خصلات شعرها الذهبي بسبابتها وتذكرت أحداث ليلة أمس ويا لها من ليلة! فبعدما انتهت من عملها عادت إلى منزلها وقضت ما يزيد عن الساعة تتزين أمام مرآتها، ثم تناولت طعام الغداء مع "وائل الشريف" في واحد من محلات الدجاج المقلي الشهيرة، وانطلقا معًا إلى مقر الشركة، وهناك وهبته جسدها راضية خاضعة للمرة الرابعة لهذا الأسبوع، ووهبها هو تلك الشقة الفخمة

مُمنيًّا إياها ونفسه بليالٍ حمراء كثيرة داخلها، ثم ودعته وانصرفت تاركةً إياه ليُنهي بعض الأعمال كما يجب أن يفعل دائمًا.

نظرت "ميادة" إلى ساعة يدها فوجدتها تُشير إلى العاشرة والنصف.. العاشرة والنصف ولم يأتِ "وائل" بعد؟! ربما قد أتى ولم تره، أخرجت مرآتها الصغيرة من حقيبة يدها وبدأت تُعدل مكياجها وهي تتفرس في ملامحها بشيء من النرجسية، ثم لملمت بعض الأوراق الموجودة على مكتبها واتجهت إلى حجرة مكتب "وائل"، فأخبرتها سكرتيرته المُثيرة "سلوى" أنه لم يأتِ بعد.

تعجبت "ميادة" من تأخره الغريب، فهذه هي مرته الأولى التي يتأخر فيها كل هذا الوقت، فبرغم سهراته الماجنة شبه اليومية، فإنه لا يتأخر أبدًا عن عمله، بل يعشقه وكأنه سهرةٌ أُخرى يقضيها بصُحبَة فتاةٍ ما!

أمسكت "ميادة" هاتفها الجوال وطلبت رقمه وهي تُغادر الغرفة، فسمعت صوت رنين هاتفه آتٍ من داخل حُجرَة مكتبه التَفَت عائدةً مرةً أُخرى ونظرت إلى سكرتيرته "سلوى" التي ما كانت "ميادة" لتعتقد أنها تكذب لولا أنها رأت في عينيها نظرات مُندهشة، وبدا أنها لا تُدرك حقًا وجوده بالغرفة، على الرغم من جلوسها إلى مكتبها طوال الوقت!

نهضت "سلوى" من مقعدها ودقت باب المكتب ثلاث دقات خفيفة، ثم فتحته، وعندما رأت ما بالداخِل تراجعت ثلاث خطوات للخلف بفزعٍ شديد وتجمدت في مكانها لثوانٍ، ثم سقطت مغشيًّا عليها!

2

إن أعذب ما تفوّه به البشر في هذه الحياة هو لفظة "الأم"، فالأم هي الصدر الحاني الذي يحتضن الإنسان، ويشعُر بما يُعانيه من دون كلمات، ويَهَبُ حُبًّا بلا مُقابل أو نهاية، ربما لا تشعُر باحتياجك لوجود الأم لأنها معك، تراها في الصباح والمساء، لم تغب شمسها عن حياتك، ولكن يشعر بها من غابت عنه، فضربه صقيع شتاء الوحدة وظلام الهموم من دون دفئها ونورها.

طفلًا بائسًا كُنتُ، لا أعرفُ ليّ أبًا أو أمًّا، أبي عرفة الرجل الطيب الذي اصطحبني لأحيا معه وزوجته وابنه في قريتهم الصغيرة ليس أبي، وبرغم طيبته واهتمامه الكبيرين بي، وبرغم رعاية زوجته ليّ لم أشعر يومًا بالأمومة في معاملة زوجته ليّ، امرأة بدينة بعض الشيء، طيبة ولكن الطيبة أو الشفقة لا يستطيعان أن يجعلا مني أخًا صغيرًا لأبنها "صبحي".

كثيرًا ما سمعتُ احتجاجها على وجودي بينهم، وكيف أن وضعهم المادي يتحمل نفقاتهم بالكاد، ماذا إذن عن تربية صغير لا يعرف سوى الشوارع وسلوك أطفال الشوارع، قالت شيئًا آخر عن أنني شؤم ولكني لم أتبين كنهه، مع الوقت الذي قضيته في البيت بدأتْ تتأقلم تدريجيًّا على وجودي وكأنني قطعة أثاث لا ضرر منها، ولقد تعلمتُ أن أتجنبها بقدر استطاعتي.

أبي عرفة كما اعتدتُ أن أناديه كان يملك محلًا لبيع الكتب والجرائد في القاهرة، ولا يأتي إلى القرية سوى أسبوع واحد كل ثلاثة أشهر، وهي الفترة التي أقضيها في شغف مُنتظِرًا عودته، حيث أقضي بصحبته أجمل أوقاتي، أشعر حقًا أنه أبي، فلماذا لا أشعر بالمثل مع زوجته؟!

تعلمتُ القراءة، وأحببتها عندما علمتُ بولع أبي "عرفة" الشديد بها، فكان يُحضر ليّ عند عودته كل ثلاثة أشهر مجموعة كبيرة من الكتب، فأقرؤها ويأخذها معه بعدما يُحضر ليّ مجموعةٍ جديدة.

في المدرسة الفقيرة الوحيدة في القرية، حاولتُ أن أتعلم، أن أفهم، أن أكون مثل الآخرين ولم أستطع، كان نصف وجهي الأيسر بني اللون، وكأنني تعرضتُ لحريقٍ ما في صغري ترك ندبته اللعينة على وجهي ليُقرر الجميع أنني ملعون!

زوجة أبي عرفة عندما رأتني في المرة الأولى قالت إنني شؤمٌ، فلم أستطع وقتها معرفة السبب، ربما كانت تلك الندبة اللعينة.

الأطفال في مدرستي منهم من كان يتحاشاني وكأنني الطاعون، ومنهم من كان يقضي أسعد أوقاته في مضايقتي من دون أن أحاول منعه، فقط مع الوقت صاروا يتجنبونني جميعًا، فالناسُ أعداء ما يجهلون، وأنا كُنتُ الطفل المُشوه الذي يُشبه ذا الوجهين في أفلام الرجل الوطواط، أنا الطفل الذي كان المُدرِس ينظُر له باشمئزاز وعدائية، فصار مع الوقت ينظُر ليّ بخوف!

"صُبحي" ابن أبي "عرفة" كان يمقتني، أعلمُ ذلك، فهو ما كانَ ليرغب بأخٍ مُشوه صامت كقبر مثلي، بل كان يرغب في أخٍ صاحب يقضي برفقته أجمل الأوقات كما يفعل مع أصدقائه كل يوم، يهربون من المدرسة ويذهبون إلى "غُرزة" شلبي الأعرج يدخنون السجائر، بينما يعرض لهم الأعرج لحمًا أنثويًّا رخيصًا تمتلئ به مجلاته الجنسية.

تحولتُ مع الوقت إلى كائنٍ وحيدٍ، ليس ليّ في هذه الدنيا سوى أبي "عرفة" وما يُحضِرهُ ليّ من كتب كل ثلاثة أشهر، يا لها من حياةٍ تعيسة تلك التي أحياها وحيدًا حتى وأنا بين الناس!

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الأحد الموافق 1983/6/19»

الخلاف الدائم بين والدي ووالدتي حول موضوع زواجي، هي ترى أن المرأة ليس لها سوى الزواج والإنجاب لتكوين أسرة، بينما يرى والدي أن الأفضل ليّ عدم إخماد جذوة البحث العلمي المُشتعلة في داخلي، كونه لم يُنجب سواي ليحمل اسمه الدكتور "جمال العطيفي" أشهر الجراحين المصريين جعله يرى أنني الأمل الوحيد الباقي له في تحقيق حلمه بالحصول على الجائزة التي يحلم بها أي عالِم .."نوبل".

كم أشتاقُ لتلك اللحظة التي أُحقق فيها حلمي وحلم والدي! أعلم مدى صعوبة الأمر، ولكن لا حدود لطموحاتي، وهذا هو ما جعل والدي يُساندني ويدعمني بكل قوته، إصراري زاد من إصراره، وعزيمتي قويَت بعزيمته، وحلمي نضجَ بحلمه.

اليوم أحضرَ ليّ بحثًا مُطولًا نشرته إحدى المجلات العلمية العالمية عن الموضوع الذي أُحاول البحث فيه كتبه عالِمٌ أيرلنديٌّ يُدعى "ستيفن مورفي Steven Murphy"، كما وعدني بمراسلته إن أمكن ذلك ومُحاولة جعله يتواصل معي، فربما أمكنه مُساعدتي في الحصول على كل ما أحتاجه من معلوماتٍ عن الأمر، وهو ما أسعدني كثيرًا، احتضنته ولثمتُ خديه بسعادة بالغة، نعم أفخر لكوني ابنة الدكتور "جمال العطيفي" وسُيشعرني ذلك بمسئولية ألا أُخيب ظنه فيّ.

3

بسنوات عُمره التي شارفت على الخمسين والشُّعيرات البيضاء الضئيلة المُتراصة على جانبي رأسه الأصلع، جلس العميد "طلعت الجارحي" على مَقعد مكتبه الفخم أسفل صورة برونزية الإطار لرئيس الجمهورية، وأشعل لفافة تبغ ليُخرج فيها سخطه على الكون بما فيه، مُفكرًا بحيرة شديدة لا تتناسب مع خبرته الواسعة في مِضمار عمله فيما يحدث من أمورٍ عجيبة لا يقبلها عقله الذي مر بخبراتٍ كثيرة تجعله لا يندهش من رؤية أي شيء جديد، فجميع الجرائم تتشابه حتى وإن اختلفت النيات والأسباب والأدوات المُستخدمة في تنفيذها، «ولكن من قال إن هذه الأحداث الغريبة تندرج بالأساس تحت قائمة الجرائم؟!»، قالها لنفسه مُتسائلًا: «الناس مولعون هذه الأيام بالانتحار حتى أنه قد يُصبح عادةً يومية لديهم مثله مثل التدخين تمامًا!»، نظر إلى لفافة التبغ بين إصبعيه فوجدها قد احترقت حتى النصف من دون

أن يأخذ منها نفسًا واحدًا يروي به ظمأ عقله المُنهك من التفكير المرير، «لن أندهش كثيرًا إذا ما رأيتُ أحدهم ينتحر مرتين أو ثلاثًا يوميًّا!»، قالها لنفسه مُبتسمًا بمرارة، «ولكن ما يحدُث عجيبٌ بحق!».

«ادخل»، قالها العميد "طلعت" وهو يئد لفافة التبغ التي لم تُقدم له جديدًا في منفضة السجائر بعدما سمع صوت دقات خفيفة على باب حجرته، فتح المُقدم "هشام العاصي" رئيس المباحث بزيه الملكي باب الغرفة ودلف منه بخطوات ثابتة، ثم توقف أمام مكتب العميد "طلعت" وأدى تحيته العسكرية.

«تفضل بالجلوس يا هشام»، قالها العميد "طلعت" وهو يُشير للمُقدم "هشام" بالجلوس إلى المقعد المُقابل له، جلس المُقدم "هشام" وقد شعر بخطورة الأمر الذي تم استدعاؤه من أجله، وبخبرة رجل المباحث الذي اعتاد البحث عن حلول الألغاز، قام بتسديد نظرات خاطفة سريعة لوجه العميد "طلعت" ويديه، مُحاولًا استشفاف مدى توتره ومنه معرفة مدى خطورة الأمر وأهميته.

«أعلمُ يا هشام أنني قد اقتطعت إجازتك لقضاء شهر العسل»، قال العميد "طلعت" في أسفٍ بالغ: «ولكن القضية التي أريدك فيها لن أثق بتركها لشخصٍ غيرك، فأنت تعلم يا هشام كم أثِقُ بك وتعلم أيضًا أنني في أولى سنوات عملي بالمباحث كنتُ تلميذًا لوالدك العميد عبد الحميد رحمه الله، وأثقُ تمامًا أنك شبلٌ خرج من ظهر أسد».

«وأنا في خدمتك دائمًا يا سيدي»، قالها المُقدم "هشام" وهو يحني رأسه في تواضع، فابتسم العميد "طلعت" ابتسامة حانية وقال مُغيرًا دفة الحديث: «شكرًا يا هشام.. أخبرني أولًا كيف حالك مع الزواج؟».

«حمدًا لله.. إيمان زوجة رائعة وهي كما تعلم يا سيدي ابنة السيد اللواء مازن السويفي، لذلك فهي تعلم جيدًا طبيعة عملي وتُقدر الظروف القهرية التي ربما أتعرضُ لها في أي وقت»، قال المُقدم "هشام"، فابتسم العميد "طلعت" لإجابته الذكية التي ألغت عنه حرجه في السؤال عن مدى ضيق زوجته الدكتورة "إيمان" لإلغاء إجازة شهر العسل.

«جيد يا هشام... والآن هيا نعمل»، قالها العميد "طلعت" بلهجة رسمية من دون أن تخبو ابتسامته، فأومأ "هشام" برأسه موافقًا ومد يده يلتقط بعض الأوراق التي امتدت بها يد العميد "طلعت" إليه.

«هذه الأوراق»، قالها العميد "طلعت" وهو يناوله ملفين ورقيين تُزينهُما أرقامٌ مُختلفة، «فيها تقارير المعمل الجنائي وتقارير المُعاينة وكل المعلومات التي استطعنا التوصل إليها عن واقعتين غريبتين بعض الشيء»، أشعل العميد "طلعت" لفافة تبغ واستطرد: «أغرب ما في الأمر يا هشام أن تقارير المعمل الجنائي والطب الشرعي يؤكدان أنهما حادثتا انتحار، فلا توجد أي آثار اشتباك أو شِجار أو بصمات لأي

شخص غريب، كل هذا بالطبع يستبعد فكرة وقوع جريمة، ولكن في ذات الوقت هناك أشياء أُخرى لا يمكن تفسيرها سوى بوجود مُجرم قام بتنفيذ الجريمتين»، أشار إلى الأوراق وهو ينظُر في عينيّ "هشام" مُباشرة، «اقرأ هذه الأوراق جيدًا ثم أخبرني برأيك فيما قرأت».

نظر المُقدم "هشام" إلى الأوراق بين يديه بعينٍ مُتفحصة خبيرة، مُتعجبًا مما قاله العميد "طلعت" عن عدم معرفة رجالِ المباحث نوع ما يحدُث، هل هو قتل أم انتحار؟!، أخذ يُطالع الأوراق باهتمامٍ بالغ، بينما رمقه العميد "طلعت" بنظرات فخورة بهذا الشاب الذكي.. "هشام" ابن العميد الراحل "عبد الحميد العاصي"، ذلك الرجل الذي استحق أن يحذو الكثيرون من رجال الشرطة حذوه، فمسيرته المهنية المُشرفة دائمًا ما تسبقه.

"هشام" شاب في الثالثة والثلاثين من عمره، طيب الخُلق، ذكي، وسيم الملامح، شعره مُصفف بعناية للخلف، جسده الرياضي مع نظرته الحادة يُعطيانه مظهرًا مهيبًا يليق برجل الشرطة المثالي، الذي طالما حلم العميد "طلعت" أن يرى ابنه الوحيد "شادي" مثله، ولكن على النقيض تمامًا جاء ولده "شادي" ماجنًا خليعًا، لا يُفرق بين ما هو حرام وما هو حلال، يستغل منصبه ووظيفته نقيب شرطة استغلالًا سيئًا قد يؤدي به يومًا ما إلى طريق وعر لا يُحمد عقباه.

حاول العميد "طلعت" جاهدًا أن يُعدل من سلوك ابنه السيئ مراتٍ كثيرة باللين ومراتٍ أخرى بالقسوة، ولكن ضاعت كُل

مُحاولاته هباءً تذروه الرياح، و"شادي" لا يتعظ ولا ينصت، «إنني أحتاجُ إلى مُراجعة هذه الأوراق بتمهل أكثر يا سيدي»، قالها المُقدم "هشام" مُقاطعًا سيل الأفكار المُنهمر على عقل العميد "طلعت"، «لك ما تُريد يا هشام.. خذ الأوراق معك وعندما تتوصل إلى أي جديد أخبرني»، قالها العميد "طلعت" وهو يُشير للمُقدم "هشام" بما يعني أنه يُمكنه الانصراف، فنهض الأخير من مقعده وأدى تحيته العسكرية للأول وانصرف إلى مكتبه ليبدأ رحلته الشاقة.

***

ما إن دلف من باب غرفة مكتبه، حتى أخذ يتطلع إلى أرجاء المكان الذي افتقده كثيرًا أثناء فترة إجازته، نظر إلى صورة والده التي يُزين بها مكتبه، فتذكر كلمات العميد "طلعت" عنه وانتفخت أوداجه فخرًا.

وضع عامل البوفيه فنجان القهوة المُحبب إلى قلب المُقدم "هشام" على المكتب، فأشعل الأخير لفافة تبغ ونظر إلى الأوراق التي أخذها منذ قليل من العميد "طلعت" مُفكرًا فيما يُمكن أن تحويه هذه الأوراق من ألغاز!

عادت إليه روح العمل الذي أحبه منذ نعومة أظفاره من حكايات والده عما كان يقابله وما يفعله في سبيل القضاء على الجريمة والمجرمين وإعادة الحق إلى المستضعفين، رشف رشفة من فنجان القهوة فشعر بالمذاق المُنبه في فمه، وفض الأوراق، وبدأ يقرأ بتمهل واهتمام

كبيرين، بدأت عيناه تجريان على سطور تقرير معاينة الجريمة التي ضم الملف الأول أوراقه.

«تبلغ للقسم اليوم الخميس الموافق 2014/10/23 من شرطة النجدة بوجود شخص مقتول داخل العقار رقم 44 من شارع يوسف عباس دائرة القسم، وبالانتقال والفحص تبين أن الجثة داخل الشقة الكائنة بالطابق الثاني علوي من العقار المذكور، وبالمعاينة تبين أن الشقة تُستخدم مقرًّا لشركة "الشريف للاستيراد والتصدير" وهي مكونة من صالة فسيحة تُستخدم لاستقبال العملاء، بها مكتب كبير لموظف الاستقبال، وردهة طويلة محاطة بالحجرات من الجانبين، في نهايتها غرفة أخرى تُستخدم للسكرتارية، وهي تُفضي للغرفة التي وُجدت فيها جُثة المجني عليه، وبمُعاينة باب الشقة وُجدَ سليمًا وليس به آثار عنف، ووُجِدَ مفتوحًا، وبالدخول للحجرة التي بها الجثة تبين أن الجُثة مُعلقة من رقبتها بحبلٍ غليظ إلى مروحة السقف، وقد أصابها ازرقاق شديد، لسانها مُتدلٍّ، كما يوجد آثار دماء مُتناثرة على أرضية الحجرة من آثار جرح في الرقبة ناتج عن ثقل الجثة وتعليقها بالحبل، وتبين أن الجثة ترتدي قميصًا أبيض، أما من أسفل فلا ترتدي سوى ملابس داخلية، ووجدت باقي الملابس ملقاة إلى جوانب الغرفة، ووُجِدَ كُرسي المكتب مقلوبًا أسفل الجثة، كما وُجِدَت لافتة مُلصقة إلى صدر الجُثة كُتب عليها كلمة "عشماوي"، وتبين أن الجُثة لشخص

يُدعى "وائل إمام الشريف" سِنُّه 29 سنة، تحرر عن الواقعة المحضر رقم **1588** إداري مدينة نصر.

تم إخطار السيد وكيل نيابة الحوادث علمًا بالواقعة، وكلفت وحدة مباحث القسم بكشف غموض الحادث وضبط الفاعل.

نُخطر برجاء الإحاطة.

مأمور القسم

طلعت الجارحي»

وضع المُقدم "هشام" تقرير المُعاينة الأولي جانبًا وأمسك بنموذج المحضر وفضه مُحاولًا شحذ تفكيره والتركيز في التفاصيل الكثيرة، بينما أحضر قلمًا وورقة ليخط عليها ملاحظاته كما يفعل دائمًا..

«المحضر رقم 1588 جنايات مدينة نصر لسنة 2014

فُتح المحضر بتاريخ 2014/10/23 الساعة 12:30 ظهرًا بمعرفتنا نحن نقيب/ عادل شوشة رئيس تحقيقات مدينة نصر أثبت الآتي:

حيثُ تبلغ للقسم من المواطنة/ سلوى شامخ عبد المجيد، سكرتيرة بشركة بمنطقة مدينة نصر دائرة القسم، من أنها حال وجودها بغرفة مكتبها بمقر الشركة، وأثناء حديثها مع إحدى زميلاتها العاملات معها وتُدعى "ميادة جمال السيد" أمسكت الأخيرة هاتفها وقامت بالاتصال

بمدير الشركة الذي لم يكن قد حضر إلى مقر الشركة لهذا اليوم بعد، فسمعا معًا رنين هاتفه داخل حجرة مكتبه، وما إن فتحت الأولى باب الغرفة حتى وجدت جثة مدير الشركة ويُدعى "وائل إمام الشريف" مُعلقة من رقبتها بحبل غليظ إلى مروحة السقف في منتصف الغرفة، ووُجد كُرسي المكتب مقلوبًا أسفل الجثة، كما وُجدت لافتة مُلصقة إلى صدر الجُثة كتب عليها كلمة "عشماوي" وبالانتقال والمعاينة تبين الآتي:

– أن الشركة محل الواقعة تحمل اسم "شركة الشريف للاستيراد والتصدير" كائنة بالطابق الثاني علوي بالعقار رقم... ويُمكن الوصول إلى مدخل العقار من شارع يوسف عباس الرئيسي، ويتم الصعود إلى الشركة عن طريق سلالم سيراميك أو مصعد كهربائي، حيث تقع الشركة المذكورة بالطابق الثاني على يسار الصاعد.

– تبين أن الباب الخاص بالشركة مصنوع من الخشب، مكون من ضلفتين، وتلاحظ لنا سلامته وعدم وجود أية آثار عنف به.

– بالدخول إلى مقر الشركة تبين أنها مكونة من عدد 6 غرف فسيحة وملحقاتها في ممر طولي تسبقه قاعة استقبال بها مكتب موظف الاستقبال، وفي نهاية الممر توجد غرفة السكرتارية التي تُفضي لغرفة المجني عليه مدير الشركة.

– بمعاينة باب غرفة المجني عليه تبين أنه باب خشبي جرار مكون من ضلفتين ولا توجد به أية آثار عنف.

– بمعاينة الغرفة من الداخل تبين أنه يوجد بها نافذة وشرفة، وتبين أنهما كانتا مُغلقتين وقت وقوع الجريمة، كما تخلوان من أية آثار عنف، كما تبين وجود ملابس المجني عليه متناثرة على مكتبه وأرضية الغرفة.

– يوجد بالغرفة عدد 2 مقعد وعدد 2 أريكة أنتريه لاستقبال الضيوف تتوسطه منضدة صغيرة، كما يوجد مكتب كبير أمامه عدد 1 مقعد جلدي ومكتبة بها بعض الكتب والأنتيكات.

– تُجاور مقعد المكتب من جهة اليمين خزينة أموال ضخمة مُغلقة بأرقام سرية، ولا يوجد بها أية آثار عنف أو ما يدل على محاولات فتحها بالقوة.

– بمعاينة جثة المجني عليه وُجِدَت معلقة من رقبتها بحبل غليظ معقود كأنشوطة يتدلى من مروحة السقف الخاصة بالغرفة، أسفلها مقعد جلدي مقلوب هو المقعد الثاني من مقعدي المكتب، وتبين أن الجثة تخلو من أية كدمات أو سحجات أو أية آثار اشتباك بين المجني عليه والجاني، ولكن يوجد بها ازرقاق شديد ناتج عن عملية الشنق، كما توجد قطرات دماء متناثرة على أرضية الغرفة نتيجة ثقل حجم الجثة واحتكاك الرقبة بالحبل، وتبين أن المجني عليه يرتدي قميصًا أبيض اللون معلقًا به لافتة كتب عليها كلمة "عشماوي"، أما من أسفل فلا

يرتدي سوى الملابس الداخلية بينما تتناثر بقية ملابسه على المكتب وأرضية الغرفة، كما تبين أن المجني عليه يرتدي ساعة ماركة رولكس وعليها قطرات دماء.

وأُقفِلَ المحضر على ذلك بتاريخه وساعته ويُقيد برقم جنايات القسم ويخطر السيد الأستاذ/ مدير نيابة مدينة نصر.

توقيع مُحرر المحضر...

عادل شوشة».

انتهي المُقدم "هشام" من قراءة المحضر، فنظر إلى الورقة التي كان يخط بها ملاحظاته أثناء القراءة، وبدأ يقرؤها بصوت مسموع وهو يطرق بقلمه طرقات خفيفة على سطح مكتبه..

«هناك جثة وهي لشخص ثري ناجح، كما توجد لافتة ملصقة على صدر الجثة بها كلمة "عشماوي" التي من الممكن أن يكون القاتل قد وضعها على صدر المجني عليه لسبب ما، وهذا يدل على وجود جانٍ، فلا يتعلق الأمر بحادث انتحار».

أشعل لفافة تبغ سحب منها نفسًا عميقًا وواصل ملاحظاته:

«المقعد المقلوب أسفل مكان الجثة يعني أن القتيل بعدما قام بتعليق نفسه في الحبل، ركَل المقعد بقدمه ليُكمل عملية شنق نفسه، كما يخلو المكان من أية آثار عنف لفتح الأبواب أو الخزينة المكتزة بالأموال أو

آثار مشاجرة مع القتيل، كل ذلك يُبرهن على عدم وجود قاتل وأن الأمر لا يتعدى كونه حادث انتحار عادي».

«يبدو الأمر مُحيرًا بحق»، قال المُقدم "هشام" لنفسه وهو يزفر في ضيق وقد تلاطمت أمواج الفكر في رأسه: «ربما يتضح الأمر بعد مُطالعة تقرير الطب الشرعي»، قالها لنفسه وهو يفض تقرير الطب الشرعي المرفق في ملف القضية وبدأ في قراءته:

«تقرير طبي شرعي في القضية رقم **1588** جنايات، قسم مدينة نصر لسنة **2014**.

أثبت أنا "أحمد سعيد" الطبيب الشرعي المُساعد أني بناءً على طلب النيابة انتقلت اليوم **2014/10/25** إلى مستشفى ألماظة وقمت بتوقيع الكشف الطبي الظاهري وإجراء الصفة التشريحية على جثة المتوفى المدعو "وائل إمام الشريف"، وذلك لبيان ما به من إصابات وسببها وتاريخ وكيفية حدوثها والآلة المُستخدمة في إحداثها وسبب وتاريخ الوفاة، وأقرر الآتي:

الصفة التشريحية:

1- الرأس: الفروة سليمة وخالية من الإصابات، وبرفع الفروة تبين سلامة عظام القبوة وخلوها من الكسور أو من أية تمزقات إصابية أو أية علامات مرضية ظاهرة، المُخ جوهره سليم ولكن توجد أنزفة بتجاويفه، عظام القاعدة سليمة وخالية من الكسور.

2- الوجه والعنق: يلاحظ احتقان وازرقاق في الوجه مع نقط تارديو الترفية على جلد الوجه وتحت ملتحمة العين، ويلاحظ الضغط على الغدد اللعابية وتدلي أو خروج اللسان إلى الخارج، كما يلاحظ وجود أخدود سحجي على الرقبة وهو مائل بشكل قوس طرفاه متجهان للأعلى وباتجاه عقدة الحبل، كما يلاحظ وجود كدمات في أنسجة الرقبة، ويلاحظ استطالة جميع الأنسجة الرخوة بالرقبة ومنهما الشريانان السباتيان، كما يلاحظ كسور في العظم اللامي.

3- الصدر: بتشريح الصدر وجدنا نقط تارديو الترفية على سطح القلب، كما تبين لنا التوقف المُفاجئ في القلب نتيجة الضغط على العصب التائه.

4- الرئتان: وجدنا بهما ذمة شديدة كما يلاحظ وجود نقط تارديو الترفية.

5- البطن: جداره سليم وخال من إصابات، تجويفه يلاحظ به أنزفة وارتشاحات، وكل من الكبد والطحال والكليتين يلاحظ بها غمق اللون.

6- المعدة: سليمة وبها طعام في دور الهضم يشتم منه رائحة كريهة.

7- المُستقيم: به بقايا قذف منوي نتيجة الاحتقان وحصول الدفق المنوي[1]، هذا وقد تبين سلامة باقي عظام الجثة وتم تحريز عينة من دماء المتوفى بمعرفتنا.

فحص الملابس التي كانت على الجثة:

1- قميص قطني أبيض اللون وفانلة داخلية قطنية بيضاء بحمالتين، وبفحصهما وجدناهما ملوثين بالدماء في عدة مواضع، ولم نميز بهما أية تمزُقات.

2- لباس داخلي "بوكسر" من القطن، لونه أزرق، وبفحصه وجدناه ملوثًا بالدماء وبقايا دفق منوي، ولم نميز به أية تمزقات.

هذا وقد تركنا الملابس بجوار الجثة بعد فحصها.

الرأي:

تبين لنا من فحص وتشريح جثة المتوفى المدعو/ وائل إمام الشريف أن وفاة المذكور تُعزى إلى قيامه بشنق نفسه شنقًا غير مثالي[2] وما نجم عنه من نقص حاد في الأوكسجين للمخ نتيجة انعدام الدورة الدموية للمخ بواسطة الشريان السباتي الموجود على جانبي الرقبة، والسبب في توقف الدم الذاهب إلى المخ هو أن ثقل الجسم المُعلق من

---

[1] يحدث الاحتقان بسبب تأثير الجاذبية الأرضية، وحيث يميل الدم إلى الانحدار للأسفل، وكذلك نقص الأكسجين يزيد من الاستجابة الجنسية فيحدث الانتصاب للعضو الذكري.

[2] يسمى الشنق مثاليًا إذا كانت عقدة الحبل في المنطقة القفوية أو تحتها 'Occipital' أما إذا كانت تحت الأذن أو في زاوية الفك أو تحت الذقن فيسمى الشنق شنقًا غير مثالي.

الرقبة يؤدي بدوره إلى استطالة جميع الأنسجة الرخوة بالرقبة ومنهما الشريانان السباتيان، وتؤدي استطالة الشريان إلى ضيق مُفاجئ لمجراهما قد يصل إلى الانسداد التام فتتوقف الدورة الدموية المُتجهة إلى المخ ويؤدي ذلك إلى الأنيميا "فقر الدم" في المخ وغيبوبة تسبق حدوث الاختناق التي تنتهي بالوفاة الفورية.

وكان قد مضى على الوفاة لحين إجراء الصفة التشريحية مدة تصل إلى يومين تقريبًا.

تحريرًا في 2014/10/25

الطبيب الشرعي المُساعد

أحمد سعيد».

***

ابتسم المُقدم "هشام" بمرارة وهو يئد سيجارته في منفضة السجائر، فلم يُقدم له تقرير الطب الشرعي سوى أنه استبعد أن يكون تعليق الجثة في الحبل قد حدث بعد الوفاة لتغيير معالم الجريمة، وهو أمر مُستبعد منذ البداية، فلا وجود أية آثار اشتباك أو عنف مع المجني عليه، ولكن تبقى اللافتة المُعلقة على صدر الجثة تُزينها كلمة "عشماوي" لتُثير التساؤلات في داخله.

أعاد المُقدم "هشام" التقارير إلى ملفها، وفض ملف القضية الثانية راجيًا أن يجد بها ما قد يعينه في رحلة بحثه المُضنية، بدأت عيناه تجريان على سطور تقرير المُعاينة، ثم توقف مذهولًا أمام جملة بعينها:
«كما وجدت لافتة مُعلقة إلى صدر الجثة كُتب عليها كلمة عشماوي!».

4

الطفل المُشوه المُخيف، هكذا كُنت في أعين الجميع وكأنني مسخ أتى من عالم موازٍ ليُحيل حياة الجميع جحيمًا، فقــط مــع القــراءة والغوص في عوالم صنعها كُتاب تتباين أفكارهم وتختلف مــساحات الخيال لديهم، أدركتُ أنني كأي شخصٍ آخر أملِكُ إحساسًا وربمــا يومًا أُصبح بطلًا لقصةٍ ما.

مع مرور السنوات تحول الطفل المُشوه إلى مُراهقٍ مُشوه، أكثــر انعزالية وتوحدًا، لم أملكُ يومًا صديقًا ودودًا يــستطيع أن يتقــبلني بنصف وجهي المُخيف وأفكاري السوداء عن الواقع بما يحويه من كُره حَبيس قلوب البشر في انتظار أول بادرة لإطلاق سراحه، لم أملــك يومًا أخًا يتودد ليّ ويُحادثني بما في قلبه مُنتظرًا مشورتي، لم أملك يومًا أُمًّا تُطبِق جانبي صدرها حولي لتضُمني إلى حضنها الرحب، كل مــا ملكته في الحياة أبٌ حانٍ وكُتبٌ مُحملة بأفكار وخيال مؤلفيها.

قام عقلي بحيلة دفاعية ساذجة في مُحاولة منه لجعلي أتعاملُ مع وحدتي وأتقبلها، وهي أنني سَموتُ فوق كره البشر ولا أحتاج إلى مُصادقتهم أو التعامُل معهم سوى بما يقتضيه الحال، وهو ما زاد من وحدتي أطنانًا، ولأن النظرات فضاحة شعر المُحيطون بي بالإهانة في تجنبي إياهم، بينما أنا مُشوه الوجه عليل الفكر وهُم الأصحاء جسدًا وفكرًا!

«ينظُر ليّ وكأنني أقل منه، ذلك المسخ اللقيط»، قال أحد زملائي في المدرسة الثانوية الصناعية للصديق الذي يسير إلى جواره، بينما أتقدمهم عائدًا إلى مترل أبي "عرفة": «نصف وجهك المُشوه لن تُجديه عملية تجميل لإعادته سليمًا»، قال وهو يجذبني من ذراعي فاستدرت بجسدي لمواجهته وتلاقت أعيننا: «بل ستُجديه مطواتي التي ستُحيل نصف وجهك السليم مُشوهًا»، قال وهو يمد يده بمطواة يلمع نصلها الحاد في انعكاس ضوء الشمس: «ماذا تُريد، ابتعد عني»، قلتُ وأنا أستدير بجسدي لأُتابع طريقي إلى مترل أبي "عرفة"، وبعد قليل نظرتُ من فوق كتفي إلى الخلف فلم أجد لهُما أثرًا، ربما عدل عن إيذائي لأنني لستُ أهلًا أن تتلوث مطواته بدمائي اللقيطة، أو أنه لم ينتقم مني حقًا لأنني لم أفعل ما ينتقم له أصلًا!

"صبحي" ابن أبي "عرفة" ينظُر ليّ وكأنني أفعى سامة تتأهب لقتله بعدما رأيته في غياب "جميلة" زوجة أبي "عرفة" عن المترل يلهو بجسد

جارتنا "نوال" الشابة ويُلطخ شرف والدها الحاج "مُرسي" صديق أبي "عرفة" في وحلٍ منوي لزِج.

"صبحي" الذي لا تزيد أهمية عقله عن أهمية دخان سيجارته الذي يخبو في الهواء، "صبحي" الذي أنبتت بذوره الوقحة في أرض "نوال" التعسة جنينًا كان سيكون مثلي بلا حياة لولا إجهاضها إياه دون علم أبيها واختفاؤها عن القرية تاركةً والدها الحاج "مُرسي" وحيـــدًا في مواجهة أمواج العار المُهلكة.

"صبحي" الذي لا يعنيه في الحياة سوى تحقيق شهواته اللامحدودة يخشى تقديم أوراقه لأداء الخدمة العسكرية.

"صبحي" الذي التحق بالجيش ففقدَ السبيل إلى تحقيق نزواتـــه المحمومة، ويأس من حياته، فجاءنا خبر انتحاره لتتلون حياة زوجة أبي "عرفة بالسواد الأبدي.

***

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العطيفي"

«الأربعاء الموافق 1983/8/24»

صحوتُ اليوم على مُفاجأةٍ جديدة من مُفاجآت أبي التي لا تنتهي، فسوف يصطحبني معه في رحلته الأسبوع القادم إلى الولايات المُتحدة الأمريكية لحضور مؤتمر عالمي يضم أعظم أطباء العالم، لكم أحببتُ رؤية أبي وهو يتحدث في الميكروفون أمام العدسات عن الإنجازات الطبية المُثيرة في مجال الجراحة! يُشعرُني ذلك بفخرٍ عظيم، كما أنني كُنتُ أتخيلُ نفسي في الكثير من الأوقات وأنا أتحدثُ للعالم كله أمام الكاميرات عن إنجازاتي الفريدة التي لم يسبقني إليها أحد.

أما أجمل ما أخبرني به أبي – وهو ما لا أُصدقه حتى الآن – أن المؤتمر سوف يُقام في جامعة "سيتي كوليدج" بنيويورك، وسوف يكون الدكتور "ستيفن موري" حاضرًا، مما يعني أنني يُمكنني مُقابلته ومُحاولة التواصُل معه.

المجال الذي أُعدَ لبحثي فيه أبعد ما يكون عن مجال أبـي، ولكنـه برغم ذلك يُساندني بصورة كبيرة ويُحاول أن يمد ليَ يد العون بكـل مـا أوتي من قوة حتى يُمكنني البدء في بحثي.

مُقابلة الدكتور "مورفي" ومُحاولة التواصل معـه تُعـد الخطـوة الأولى للحصول على كل ما أحتاجه من معلومات لبداية عملـي.. شـكرًا أبـي، لولاك ما حققتُ شيئًا.

5

زقزقات العصافير التي طالما أحب الاستماع إليها في مثــل هــذا الوقت لم أجدها جميلة كالعادة، حتى قُرص الشمس الذي بــرز مــن خلف المباني كان شاحِبًا بعض الشيء، بينما أمواج الفكر تقذف بــه إلى يابسة الواقع القاحلة التي لا حياة فيها.

سحبَ المُقدم "هشام" نفسًا عميقًا من سيجارته وحبسه في صدره حتى تبدد الدخان داخله، «يا لها من قضيةٍ مُحيرة!» قالها لنفسه: «هل تفشل هذه المرة يا هشام أنت الذي اعتدت النجاح!»، يــد حانيــة ربتت على كتفه، فالتفتَ إلى الوراء ليجد زوجته الدكتورة "إيمــان" تبتسم بحنو وهي تُداعب خصلات شعرها الفاحم: «تستيقظُ مُبكــرًا جدًّا هذه الأيام يا عزيزي»، قالت إيمان وهي تنظُر في عينيه بنظــرة خبيثة مُداعبة: «هل هُناك ما يشغل تفكيرك غيري؟!» قالت مازحة.

«أبدًا»، أجاب "هشام": «لا يمكن أن يشغل تفكيري غــيرك»، جلست "إيمان على قدميه وطوقت عنقه بذراعها اليمنى، «إذن فيما تُفكر؟»، قالت هذه الأخيرة مُتسائلة، فأجاب "هشام" بنفس آخر من لفافة التبغ سحبه إلى صدره ونفثه مخلفًا سحابة من الدخان وصـــمتًا عميقًا، «إذن ترغب أن تبقى وحيدًا بعض الوقت»، قالت "إيمان وهي تنهض من فوق قدميه فأمسك "هشام" بمعصمها ولثمَ كــف يــدها الدقيقة في حنو: «تعلمين يا حبيبتي أنني لا أريد أن أشغل تفكــيرك بمتاعب عملي»، أجابها ونظر إلى وجهها فطالعته ملامحهــا الدقيقــة البريئة ولاح على ثغرها شبح ابتسامة، «سوف تُخبرني كل شــيء، ولكن بعد أن نتناول طعام الإفطار»، قالت بثقة فابتسم وأومــأ لهــا برأسه موافقًا.

بعدما انتهيا من تناول إفطارهما عاد "هشام" إلى جلــسته الأولى مُمسكًا بين يديه بكوب الشاي الساخن الذي أعدتــه لــه زوجتــه وجلست أمامه وقد تمكن منها فضولها الأنثــوي الــشبق المُتلــهف للمعرفة.

أشعل "هشام" لفافة تبغ سحب منها نفسًا عميقًا نفثــه بــبطء، «قضية جديدة»، قال وقد بدا أنه يُحاول استجماع شتات فكــره، «ولكنها غريبة جدًا.. جثتان مشنوقتان وفي وقتٍ مُتقارب.. الغريب أنه لا وجود أي آثار اشتباك أو عُنف في الحادثتين، مما يستبعد فكرة

كونهما جريمتي قتل، كما لا توجد أي دوافع سابقة لقيـــام صـــاحبي الجثتين بالانتحار»، توقف "هشام" عن الحديث لبرهة فرأى التركيـــز الشديد على ملامح زوجته ونظراتها المُستجدية مُتابعتـــه للحـــديث، «أكثر ما يُحيرني هو وجود لافتة مُعلقة على صدر كل جثة مكتوب بها كلمة عشماوي»، قال "هشام" وهو يضغط بسبابته ما فوق أنفـــه وبين عينيه ضغطًا متواصلًا وكأنه يُحاول إفاقة نفـــسه مـــن غيبوبـــة التفكير التي أحاطت عقله المُنهك، «تُرى من قام بتعليق اللافتتين على صدر كل جثة؟! وما الذي تعنيه كلمة عشماوي؟! هل هـــو اســـم القاتل؟ ولو كان كذلك فلماذا يترُكُ القاتل لافتة تُشير إليه؟! ولو لم يكن عشماوي هو اسم القاتل فماذا تعني اللافتة؟ ولمـــاذا يـــضعها المُنتحر على صدره؟! بل لماذا يضعها اثنان قامـــا بالانتحـــار علـــى صدريهما من دون أن يكون هناك ما يربط بينهما بأي شـــكل؟!»، كان "هشام" يتحدث وكأنه يُخاطب نفسه ويتساءل في داخله عـــن إجابات تلك الأسئلة، «أمر مُحير حقًا»، قالت "إيمان" وهي تُحاول أن تربط بين كل ما قيل، «هُناك تفسيرٌ ما بالتأكيد».

نظر "هشام" إلى ساعة يده، ثم نهض من جلسته وقـــام بتبـــديل ملابسه استعدادًا للذهاب إلى عمله، بينما بقيت زوجته الـــدكتورة "إيمان" في مكانها وقد استغرقت في تفكير عميق.

***

آدم المسكين ما أغوته الحية ولكن أغوته حواء، الأُنثى فقط هـــي من تستطيع أن تُنسي الرجُل مسؤولياته أو مبادئه، فما اســـتطاعت الحية أن تُسقط آدم في فخها إلا بتسليط حواء الأولى عليه، حواء هي السبيل الوحيد للنسيان، هكذا يرى النقيب "شادي" حواءه الخاصة "سوسن أستك".

انتبهت "سوسن أستك" الفاتنة المُثيرة إلى صوت "مديحة سُلطان" القوادة الشهيرة، «الباشا يُريدك»، تركت علبة طلاء الأظفار علـــى الكومود الراقد إلى جوار الفراش ونهضت بتثاقُل إلى مرآتها ونظرت بنرجسية شديدة إلى انعكاس وجهها في المرآة، داعبـــت خـــصلات شعرها المائل إلى الحُمرة، ثم خرجت من حُجرتها لتجد "مديحة سُلطان" الجالسة على مقعدها الضخم بجسدها البدين تُمسك بيدها اليمنى "لي" الشيشة التي تفوح منها رائحة التفاح القوية، وتُمسك بيدها اليسرى كوب الشاي الثقيل الساخن، «لماذا يريدني الباشا في هذا الوقت؟»، قالت "سوسن" مُتعجبة، «هذه ليست عادته!»، نظرت لها "مديحـــة" نظرة ذات مغزى، «وهل أستطيع أن أُعارض رغبـــات الباشـــا؟!»، قالت هذه الأخيرة بانكسار لم تعهده فيها "سوسن" من قبل، «تعلمين أنه هو من يحمينا ويُبعد أعيُن رجال الشرطة عنا، ولا يُمكنني أن أرد له طلبًا».

في سُني شبابها الأولى كانت "مديحة سُلطان" هي المرأة التي يحلـــم أي رجل أن يلقاها في الفراش، عاهرة مُتمرسة تكمـــن حرفيتـــها في

قدرتها على أن تقذف بك في بُركانٍ نشط حُممه مفاتن جسدها الفائر، مرت السنوات فتحول جسدها البض الذي يرغبه الرجال إلى كومة من اللحم المُترهل الذي يُثير الاشمئزاز، ولأنها لا تعرف لنفسها مصدرًا آخر للرزق سوى نسج خيوط الجسد العنكبوتية على شهوات الرجال، تحولت إلى أشهر قوادة في القاهرة كلها.

تملك "مديحة سُلطان" عينين خبيرتين تستطيع بهما فرز أجساد عاهراتها، وتعلم ما يناسب هذا الرجل أو ذاك، كما تستطيع بخبرتها الواسعة تحويل لحوم الأجساد إلى أطباق شهية تُثير شهوة الرجل الجائعة، فيلتهمها وتلتهم هي بالمُقابل أمواله السخية، امرأة تُجيد عملها وتُحبه فعلًا، شيء واحد كان يُنغص عليها حياتها ويُحيلها جحيمًا.. الحماية.. ففي مهنتها تلك تحتاج أن تستند إلى أشخاص يمكنهم حمايتها، هناك "إبراهيم الغزاز" البلطجي مفتول العضلات الذي يُجيد التفاهم مع الزبائن أو من تتمرد عليها من عاهراتها سواءً كان باللين أو بالقوة، ولكنها – مديحة – ما زالت تحتاج إلى الحماية الحقة ممن هم في الخارج يتربصون بها، فإذا ما هاجمتها الشرطة إن لم يكن "إبراهيم" هو أول الهاربين فلن يُمكنه حمايتها من رجال الشرطة الذين يتوقون للقبض عليها.

"شادي طلعت الجارحي" كان هو من تحتاجه "مديحة سُلطان"، نقيب شرطة شاب، شهوته لا رادع لها، تتحكم فيه نزواته لأبعد

الحدود، كما أن له نفوذًا كبيرًا بحُكم كونه ابن العميد "طلعت الجارحي".

سقط "شادي" في هوة "مديحة سُلطان" التي أغدقت عليه من لحوم عاهراتها ما لم يستطع مقاومته، فصار يأتيها يوميًّا طالبًا وعاءً أنثويًّا يُفرِغُ فيه شهوته الجامحة، أما ما حدث معه و"سوسن أستك" فكان الطامة الكُبرى لمديحة سُلطان.

"سوسن أستك" عاهرة في الخامسة والعشرين من عمرها، مليحة التقاسيم، جسدها قُدَّ من نارٍ تُؤجج حُمم الشهوة في أجساد الرجال، وعندما ينالونها كانوا يُغدقون عليها الكثير من الأموال، اشتهرت بسوسن أستك لأنها كانت تحصل من زبائنها على مبلغ ضخم، قد يكون "مؤستكًا" في أوقاتٍ كثيرة.

قرر النقيب "شادي" أن تكون "سوسن" له وحده فلا يتذوق جسدها سواه، وهو ما لم يُرضِ "مديحة سُلطان" القوادة التي خسرت الكثير من زبائن "سوسن"، ولكن هذه الأولى لم تكن تملك من أمرها شيئًا، فالنقيب "شادي" يُمكنه بسهولةٍ تامة أن يزُج بها إلى السجن لتقضي ما بقي لها من عُمر.

اعتبرت "مديحة سُلطان" أن "سوسن أستك" هي ثمن الحماية التي يُقدمها لها النقيب "شادي" وهو ثمنٌ باهظ بالنسبة لها، ولكن ليس في مقدورها الرفض، فخسارة أجر عاهرة واحدة مهما يكن كبيرًا لا

يساوي خسارتها لعملها بالكامل، «هيا اذهبي للباشـــا ولا تتـــأخري عليه»، قالت "مديحة" وهي تضع كوب الشاي الفارغ على منـــضدة صغيرة إلى جوارها، «نحن لا نُريد متاعب مع الباشا».

6

الحياة والموت نقيضان ينبُذ كُلٌّ منهُما الآخر، كلاهُمـــا لم نختـــره وكلاهُما واقعٌ عَبثي علينا أن نرضى به ونقبله كما هو، فلـــم يختـــر أحدنا أن نُوجَد في هذه الحياة أو أن نملأ صدورنا بهوائها لتعمل تلك الآلات الموجودة داخل أجسامنا بانتظام رتيب خوفًا من لحظة التوقف المُفاجئ لها، فتتحطم أمواج الحياة الصاخبة على صخرة الموت المرير.

ربما استطاع الإنسان في لحظة ضعف أن يُنهي حياته بيده طـــاردًا روحه المُعذبة من جسده رافضًا هبة الله له، ولكن هل يستطيع أن يُعيد روحه إلى جسده مرةً أُخرى مُنهيًا سطوة الموت؟! تلك هـــي عبثيـــة الواقع أن نحيا حياةً لم نخترها فنُجرب أن نختر خيارًا آخر لا رجعةَ فيه!

أنهى "صبحي" ابن أبي "عرفة" حياته التي لم يخترها شاعِرًا باليأس، فلم يستطع الأطباء إنقاذه كما لم يستطع أي إنسان إنقاذ روح زوجة أبي "عرفة" الميتة داخل جسدها الحي.

الشيب الذي زحف إلى شعر رأسها وروحها معًا، الذبول الذي أصاب جسدها وروحها معًا، الحُزن الذي قتل إشراقة وجهها وروحها معًا، الدموع التي بللت فراشها وروحها معًا، كلها علامات دلت على أنها صارت جسدًا واهنًا تسكُنهُ روحٌ ميتة.

نظراتها القتالة تتهمُني أنني سبب في انتحار ابنها الوحيد، فهي لم تعتبرني يومًا ابنها، ولكن هل كُنتُ حقًا سببًا في إنهاء ابنها الوحيد حياته؟! أحيانًا كثيرة أراها مُحقة فيما تعتقده، فلولا وجودي في حياتهم لكان وحيدًا لأبيه وأمه وما التحق بالجيش، وكأن شهادة ميلادي التي قُيدت باسم أبي "عرفة" كانت شفرته الحادة التي مزق بها أوردته لتنساب دماؤه مع روحه خارج جسده.

الحُزن الذي تملك من "جميلة" زوجة أبي "عرفة" لفقدها ابنها الوحيد تملك من روحها حتى صار لها إلهًا وصارت له عبدة تنشد تراتيل إرضائه عسى أن تُقنع قلبها بالخسارة الفادحة فتخف وطأة الحُزن عنها قليلًا، أو أن تفقد روحها فتذهب حيثُ يوجد ابنها الوحيد.

«يا ابني شبابك زين وخسارة زهر الجناين طاح نواره»، تُنشد "جميلة" زوجة أبي "عرفة" في أسى وهي تمسح الدموع التي تُبلل خديها بطرف ثوبها الأسود، «يا ابني شبابك زين وأنت زين لولا شبابك ما بكت ليّ عين»، مع مرور الوقت تحول العَديد الذي تنشده زوجة أبي "عرفة" من طريقة لمواساة روحها المُعذبة وقلبها الحزين إلى

أسلوب حياة أو عمل تتقاضى من أجله أجرًا، تذهب إلى أي سرادق عزاء لأي ميت حتى وإن لم تكن تعرفه، تُنشد عديدها الحزين في ابنها الوحيد، فتنساب دموع أهل الميت أنهارًا على ميتهم، فينقدونها أجرًا على ما بثته من شجنٍ وكآبة داخل العزاء، طريقة غريبة للتعبير عن الحُزن، ولكنها الطريقة الوحيدة التي تعرفها زوجة أبي "عرفة"، حتى لا تخمد نيران حُزنها على ولدها مع مرور الأيام فتنساه على غير رغبتها.

حاول أبي "عرفة" الرجل العاقل الذي رضي بقضاء الله أن يُثنيها عما تفعله، ولكن عبثًا ضاعت مُحاولاته واستسلم للأمر الواقع تاركًا إياها تفعل ما يُريح قلبها العليل وعقلها غير القانعِ بما كتبه الله لها.

بعد حينٍ لم يعد بمقدوري تحمُّل البقاء في هذا الجو القاتم المُلبد بغيوم الحُزن، فأخبرتُ أبي "عرفة" بما في صدري وكيف أن نظرات زوجته الكارهة ليّ باتت تؤرقني، فأوجد ليّ الرجل الحل المناسب وهو أن أحل محله في العمل بالقاهرة وأن أُدير محل الكُتب والمجلات بدلًا منه، بينما يبقى هو مع زوجته ليرعاها، على أن آتي لزيارتهما كل ثلاثة أشهر كما اعتاد هو أن يفعل.

أسعدني اقتراحه جدًّا، فطالما كانت الكتب هي صديقي الوحيد الذي أسعد بصحبته ومُجالسته وبثه أفكاري والتعلم منه والاستفادة من آرائه.

اصطحبني أبي "عرفة" معه إلى القاهرة، وهناك أغـوتني الكتـب المُتراصة إلى جانب بعضها بعضًا على رفوفها بسحرها، وسعدتُ جدًّا حينما أخبرني أبي "عرفة" أنني سأبيتُ في المحل بعد إغلاقه ليلًا، كـان المحل عبارة عن صالة طويلة تزينها الأرفف المليئة بالكتب من جوانبها الثلاثة، وفي المنتصف طاولة طويلة تتراص عليها الكتب، وفي نهايـة الصالة فتحة في الحائط الأيمن تُفضي إلى غُرفتين صغيرتين إحـداهُما كانت الحمام والأُخرى تُستخدم للمَبيت، أما أمام باب المحـل مـن الخارج وُضعت منضدة عليها الصُّحف اليومية وبعض المجلات.

ساعدتني ثقافتي وسِعة إطلاعي على الكُتـب مُنـذُ الـصغَر في مُساعدة الناس على اقتناء الكُتب التي تتناسب وأذواقهـم، فهنـاك بعض الناس يأتون طالبين ترشيحي لكتابٍ جيد، ومنهم مـن يـأتي ليطلب شيئًا بعينه.

عاد أبي "عرفة" إلى القرية الصغيرة "سمهود" ليرعى زوجته تاركًـا إياي في مملكة الكتب التي بدأتُ في التهام محتوياها بما لديّ من قوة.

***

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الاثنين الموافق 1983/8/29»

لم أجـد الوقـت الكـافي لكتابـة مُـذكراتي الأسـبوع الماضـي بـسبب انشغالي مع والدي في التجهيز للمؤتمر، ولكنه كان أسبوعًا حافلًا مليئًا بالأحـداث المُـثيرة، سـافرنا إلى الولايـات المُتحـدة الأمريكيـة، بعـض الخوف من ركوب الطائرة لا بأس به، إنها مرتـي الأولى، علـى الـرغم من ذلك قضيتُ وقتًا مُمتعًا في رؤية السُحب أسفل بدن الطائرة الضخمة، يا للعقل البشري وقدرته على تحقيق المُستحيل! كيف استطاع الإنـسان أن يتحدى قوة الجاذبية الأرضية والطيران بكتلة الحديد تلك؟! اليـوم البشرية كلها تدين بما قدمه لها الأخوان "رايت" وفي المُستقبل القريـب ستدين ليّ بما أُقدمه لها.

تحدثتُ مع أبي خلال الرحلة وشرحتُ لـه نظـريتي ومـا أحـاول فعله، قال إن الأمر يبـدو صـعب التحقيـق، ولكـن لا شـيء مُستحيل، بعض المُثابرة والعمل كفيلان بإذابة جليد المُستحيل.

كتابتي لمُذكراتي تُمثلُ ليّ توثيقًا تاريخيًا لما أردته وما وثقتُ به وما عملت عليه، ومن ثم ما حققته بالفعل، ولكني لم أقوَ على كتابة شيء، فالكثير من التجهيزات والتحضير قبل انعقاد المؤتمر أشركني فيها أبي فلم يترك ليّ وقتًا كافيًا للكتابة، كما كنتُ أشعر بالإنهاك الجسدي مـن تغـيير الطقـس، يبـدو أن أبـي يُحـاول الولـوج بـي إلى جـو المـؤتمرات واللقاءات العلمية.

يوم المؤتمر حضره الكثير مـن الأطبـاء والعلمـاء ووسـائل الإعـلام العالمية، وقف أبي على المنصة وبإنجليزية رائعـة أتقنهـا منـذ الـصغر راح يوضح للجميـع الإنجـازات العلميـة الكـبيرة في مجـال الجراحـة، أعجـبني هـدوء القاعـة كـثيرًا، لا شـغب، لا همـسات بـين الحـضور، الجميع يتطلعون إلى العلم والمعرفة.

انتهى المؤتمر فقام أبي بإجراء بعض الحوارات الصحفية للعديـد من الصُحف العالمية، ثم عرفني إلى الكثير من رجالات العلم المشهورين عالميًا، يا له من كنز أن تبقى إلى جوار ذلك الرجل المهيب المحبوب من الجميع، أبي الذي تعلمت منه الكثير وأحلم بتحقيق حلمه في الوصـول إلى المجد الأبدي بتقديم الإنجاز الذي لم يُقدمه آخر غيري!

لم يحضر الدكتور "ستيفن مورفي" المؤتمر وهو ما أزعجني كثيرًا، ولكن أبي الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة تُفلت من بين يديه استطاع الحصول على عنوانه لمُراسلته فيما بعد.

عُدنا إلى مصر في اليوم التالي، لم أشعر بذات الرهبة الأولى في ركوب الطائرة، وكأنني اعتدتُ الأمر، لن تضعف عزيمتي، فسوف أحاول في الأيام التالية أن أتواصل مع الدكتور "مورفي" عن طريق البريد، أعلم مدى صعوبة الأمر ولكن لا شيء مُستحيل.

7

في مكتبه جلس المُقدم "هشام" مُحاطًا بالأوراق يراجـــع أقـــوال الشهود، ويفند التحقيقات، ويُسجل مُلاحظاته عن كل شيء مُحاولًا إيجاد سبيله إلى المعرفة، إلى الفهم، إلى القبض على القاتل الخفي الذي لا وجود له على أوراق النيابة، ولكنه – هشام – يثق بوجوده على أرض الواقع.

يَسكُب أقداحًا من القهوة في جوفه فتنتبه أفكاره الراكدة في بئر عقله وتشتعل حواسه مُخلفة وراءها سحابة من الدخان تخرج من فمه مُحملةً برائحة التبغ المُحترق لعشرات السجائر المُعذبـــة، مُـــستندًا بكوعه الأيسر إلى مكتبه ضاغطًا بإبهامه ووسطاه على جانبي رأســـه يستجدي حلولًا منطقية لتلك المُعضلة.

«ادخل»، قالها "هشام" بعدما سمع الدقات الخفيفة على باب حجرته، فانفتح الباب ودلف منه النقيب "شادي الجارحي" بقوامه الممشوق وملامحه الوسيمة وحلته العسكرية المهيبة، وتقدم بخطوات برغم ما فيها من ارتباك بدت واثقة، توقف أمام مكتب "هشام" وأدى تحيته العسكرية، «أود أن أستفسر منك عن شيءٍ ما يا سيادة المُقدم»، قال شادي.

«تفضل بالجلوس»، قال "هشام" وهو يُشير بيده اليمنى إلى "شادي" كي يجلس قبالته، «ما الأمر يا شادي؟»، سأل "هشام" بينما جلس "شادي" أمامه، «أودُّ أن أعرف ما الذي توصلت إليه تحقيقات النيابة في قضية مقتل رجل الأعمال وائل إمام الشريف؟!»، قال "شادي في ارتباك.

«وهل يهمك الأمر في شيء؟»، سأل "هشام" وهو ينظُر إلى عيني "شادي" مُحاولًا قراءة تعابير وجهه، «فقط قرأتُ ملف القضية عندما كان بحوزة والدي وشعرتُ بالغرابة في الأمر»، قال "شادي" وهو يرسم على وجهه علامات اللامبالاة، «الأمر غريب بعض الشيء».

«معك حق يا شادي»، قال "هشام" وهو يهز رأسه موافقًا، «كل الأدلة تؤكد أنها حادثة انتحار بينما لا يُمكن تفسير الأمر إلا بوجود قاتل يُجيد ما يفعله»، استمع النقيب "شادي" إلى كلمات المُقدم "هشام" وزم شفتيه مُفكرًا، «ألا توجد أية دلائل تُشيرُ إلى القاتل؟»،

سأل "شادي" مُتعجبًا، «للأسف أشعرُ للمرة الأولى في حياتي المهنية أنني أمام جريمةٍ كاملة، لا يُمكننا الإيقاع بفاعلها»، أجاب "هشام" وعقله يطن بكلمةٍ واحدة.. "عشماوي".

***

في شقته المفروشة فخمة الأثاث حديثة الطلاء، راح النقيب "شادي" يذرع الصالة جيئةً وذهابًا في توتر، بينما سُحب الدخان الكثيفة التي تُطلقها لفافة التبغ بين يديه تملأ المكان، «ألا تأتي تلك العاهرة في موعدها أبدًا؟!»، قال "شادي" بصوت مسموع مُحاولًا أن يطغي صوت لسانه على صوت عقله المُتحير في التفكير في مقتل "وائل الشريف" الذي يربكه ويشغل تفكيره بالكامل.

أكثر ما يُحيره في الأمر أنه يعرف "وائل الشريف" جيدًا ويعلم كم أنه يعشق الحياة بمُتعها ومجونها، ويثق تمامًا أنه لا يُمكن أن يُنهي حياته بالانتحار، كما يشعُر "شادي" بالضيق لخسارته مبالغ مالية ضخمة كان يأخذها لتسهيله بعض الإجراءات التي تتعلق بأعمال "وائل الشريف" المُخالفة للقانون، فموت "وائل" يعني له خسارة أموال كثيرة كانت ستُزين حسابه المصرفي وتزيد من غطرسته وغروره وثقته بقدرته على تحقيق رغباته رغمًا عن أنف الجميع.

تذكر ما قاله له المُقدم "هشام" عن الأمر، «لا يمكن تفسير الأمر إلا بوجود قاتل يُجيد ما يفعله»، حقًا يُجيد هذا القاتل ما يفعله وإلا

ما استطاع أن يقتُل "وائل الشريف" في مكتبه وبهذه الصورة لتبدو انتحارًا، من دون أن يترك خلفه دليلًا واحدًا يُمكن النيابة من معرفة القاتل أو الاستدلال على مكانه، لا بد أنه مُحترفٌ بحق.

صوت قفل الباب يستجيب لولوج المفتاح، ثم انفتح الباب وأطلت "سوسن أستك" بوجهها الساطعِ وقوامها الممشوق لجسدٍ ناري يحرق أفئدة الرجال.

وأدَ "شادي" سيجارته التي احترقت من دون أن يأخذ منها أكثر من نفسين في مطفأة السجائر، «لماذا تأخرتِ هكذا؟»، قال بعصبية شديدة، فأغلقت "سوسن" باب الشقة، «لم أتأخر»، قالت بغنجٍ مُصطنع، فتقدم "شادي" بضع خطوات حتى وقف أمامها وصفعها بيده اليمنى على خدها الأيسر صفعة شديدة، فتفجرت الدماء الحارة من شفتها السفلى، «أنتِ خادمتي ووظيفتُكِ الوحيدة هي تنفيذ رغباتي»، قال "شادي" بغضب شديد بينما أطل الذهول من وجه "سوسن" التي لم تره من قبل غاضبًا بهذه الصورة ووضعت يدها على شفتها تمسح دماءها، «وتذكري دائمًا أنكِ عاهرة لشخصٍ واحد.. ولم أستثنكِ من مُعاشرة باقي الرجال إلا لخوفي من الإصابة بأي من تلك الأمراض اللعينة، ولتكوني دائمًا في خدمتي، فحينما أُريدُكِ يجب أن تأتيني على وجه السرعة... أفهمت؟!»، أومأت "سوسن" برأسها موافقة غير مُصدقة لما قاله "شادي"، تشعُر بالإهانة البالغة لأنوثتها

وجمالها الصارخين، فهي ليست أكثر من جارية عليها تنفيذ رغبـــات سيدها!

لم يُمهلها "شادي" وقتًا للتفكير بل دفعها بيده بعنف تجاه حجـــرة النوم، ولم تكد تدخل الحجرة حتى دفعها بعُنفٍ أكبر تجـــاه الفـــراش فسقطت عليه بوجهها، وقبل أن تعتدل نزع عنها "شادي" ملابسها بعُنفٍ شديد وراحَ يُضاجِعُها بسادية لم تعهدها فيه من قبل.

لدقائق معدودات تخيل "شادي" أن "سوسن" الراقدة تحته لا حول لها ولا قوة وكأنها ذلك القاتل المدعو "عـــشماوي" وراح يـــضربها بقسوة فتصرُخ لتزيد آهاتها من قسوته عليها حتى أفرغ شهوته فيها، وكان صوت تنهده المُنتشي هو آخر ما سمعته "سوسن" قبل أن تفقد وعيها.

8

أحيانًا كثيرة أشعُر أنني الخطأ الذي ارتكبته الحياة في حق نفسها، فأحيا ساخطًا عليها بما ومن فيها، لا أرى من حولي شيئًا واحدًا يمكنه أن يكون دافعًا يحيا الناس من أجله، الحُب كثيرًا ما يكــون زائفًــا، والمال كثيرًا ما يكون زائلًا، والعُمر دائمًا ما يكون ذابلًا.

لا أثقُ بالنظر إلى الناس مما يُظهرونه عن أنفسهم، فكُلٌ منا يرى أنه الأفضل والأجمل والأطهر والأنقى والأكثر ذكاءً، كُلٍ منا يُسطِّحُ آراء الآخر ويبخس من قدره ويهجو ما فيه من صفات، كثيرًا ما يُخفــي الناس حقائقهم بأقنعةٍ زائفة تُظهرهم بشكلٍ أفضل.

ذلك الرجل الذي يأتيني طالبًا المزيدَ من الكتب الدينيــة الــتي تُساعده في التقرب أكثر إلى ربه، أراه ينظُر لتلــك المــرأة بعيــنين

مُتحرشتين تغتصبان جسدها في صمتٍ أقبح من ألف فعل، ثم يبكي في صلاته أمام الناس بدموع التماسيح الخادعة.

تلك المرأة التي تأتيني لتشتري جميع المجلات التي تتحدثُ عن أحدث صيحات الموضة، فتُنفقُ أكثر من مائتي جنيه، لكنها لا تمد يدها إلى حقيبتها قط لتُخرج جُنيهًا واحدًا تُعطيه ذلك الصغير الجائع.

أما هذا الرجل "فريد منصور" فهو الأكثر علمًا وثقافة وخُلقًا عظيمًا، يأتيني مرتين في الأسبوع الواحد ويشتري كميات كبيرة من الكتب يقرؤها جميعًا بنهمٍ شديد، تناقشتُ معه كثيرًا فجذبني إليه بثقافته الواسعة وعلمه الشديد وأسلوبه الراقي في الحديث وأخلاقه المُهذبة ونظراته البسيطة، حتى شعرتُ أنه ربما يكون يومًا ما صديقي المُقرب، وعندما اقتربت منه لذلك الحد الذي يكفي لشف الحقائق ونزع الأقنعة لسعتني نار الإلحاد المُستعرة في داخله، فلا وجود لله في حياته، الحياة وُجِدَت بمحض المصادفة وتطورت حتى صار الإنسان إنسانًا يحيا أعوامه مُنتظرًا الفناء الأكيد.

أما هذه الفتاةُ الشابة فهي الأكثر غطرسةً وغرورًا بين جميع من قابلتهم في حياتي البائسة، اسمها "هايدي" وهي ابنة أحد الوزراء الذين لا نتذكر اسم أحدهم إلا بعد تقاعده عن العمل وتصدر صورته صفحات الصُّحف مع سلسلة كاملة من المقالات لسرد فضائحه وفساده والأرقام الفلكية للأموال التي اختلسها أثناء فترة عمله،

يكفي لهايدي أن تذكر أنها ابنة الوزير حتى ينحني لها الجميع راغبين في تلبية طلباتها التي يعتبرونها أوامر عُليا، تلك السلبية التي يتعامل بها الجميع مع "هايدي" صنعت من هذه الأخيرة وحشًا مريدًا تحرر من قيوده فأصبح من العسير جدًّا التعامل معه، ترى في نفسها إلهًا لا يُرد له أمر، تتعامل مع جميع البشر وكأنهم جمادات، أشياء لا قيمةَ لها ولا منفعة سوى تحقيق رغباتها!

وكأي شخصٍ آخر ممن تتعامل معهم "هايدي" ترى أنني جماد، أحيانًا ما تكون كلماتها مُهينة لدرجة شديدة، إلا أنني أتمالكُ أعصابي لا لشيء سوى أنني لا أرغبُ في أن أفقدُ آدميتي أو أن أتعاملُ مع الناس بمثل ما يُعاملونني به.

في نهاية كل يوم أجلسُ في غُرفتي في مكان نومي أقرأُ وأتزوَّد بما يلزمني من معرفة، كما قُمتُ بتخصيص وقتٍ للتفكير والتأمّل، يجب أن أُفكر حتى أشعُرَ بدماء الحياة تسري في عروقي، يجب أن أُفكر حتى أتميز عن تلك الدواب التي خلقها الله لتحيا بحسب غرائزها وحدها، ولكن من قال إن الفكر يُريح؟! لم يزدني الفكر إلا شقاءً، فما صار إليه حال الكون في هذا الزمنِ العصيب يُشبه طوفانًا أغرق كل عقول البشر، فما صاروا يتفكرون إلا في الاقتتال والنزاعات والصراعات حول مادياتٍ زائلة، صار العالم كله يحتاجُ إلى الخلاص مما هو فيه من غرقٍ مُهينٍ للآدمية.

الخلاص.. تلك الكلمةُ السحرية، هل كان "صـــبحي" ابـــن أبي "عرفة" يشتهي خلاصه عندما مزق شرايينه بالموسى؟! هل كان يُفكر مع ذاته مثلما أفكرُ مع ذاتي في الخلاص؟! هل يتوجب عليّ أن أقتُل نفسي حتى أحصل على الخلاص الذي أفتقده؟! ولكن هل حـــصل العالم على خلاصه بقتل "صبحي" لذاته؟! لا لم يحدث ذلك.. يجـــبُ عليّ في رحلة بحثي عن الخلاص أن يكون الخلاص الذي أُقدمهُ للعالم شاملًا مُدويًا، لن أُنهي حياتي مثلما فعل "صبحي" بل سأُنهي حياة كُل من ضل السبيل الحقيقي للحياة، سأُنهي حياة كل من لم يُحقق هدف الله في خلقه، سأكون رسول الخلاص.. رسول الموت.

***

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الإثنين الموافق 1984/5/7»

الكثير من الخطابات بعثتُ بها إلى الدكتور "ستيفن مورفي" في الشهور الماضية ولكن لا رد منه حتى الآن، تُرى هل كان حلم التواصل معه وهمًا كبيرًا؟!، أشعُر ببعض اليأس لا أعرف له سببًا، هل ما أشعر به بسبب عدم قُدرتي على التواصل مع دكتور "مورفي"؟، أم لرؤيتي التدهور المُفاجئ في صحة أبي الذي راح نشاطه يذوي يومًا بعد الآخر؟!

نصحته كثيرًا بالإقلاع عن التدخين الذي يدهس صحته بقدميه ولكن بلا فائدة، يُشعل السيجارة من أختها وكأنه يُحاول أن يملأ رئتيه بأكبر قدر من الهواء المُلوث قبل أن يرحل عن عالمنا! لا أعلم ما الذي يُجبرني على كتابة مثل هذه الكلمات القاسية؟! لا أتخيل

وجودي في الحياة من دون أبي، ربما هو الخوف الذي أبثه للورق عسى أن ينجلي عن قلبي.

اليوم استدعاني إلى حجرته، كان جالسًا إلى مكتبه مُستندًا بظهره إلى مقعده الجلدي الكبير، كان شاحبًا لدرجة كبيرة، تخرج الكلمات من بين شفتيه بصعوبة شديدة، قال من بين دخان سيجارته الذي يملأ المكان:

– اسمعي يا صغيرتي ما أقوله لكِ وافهميه جيدًا، مكانكِ ليس هنا، لن تتمكني من تحقيق أي شيء في مصر، لن تجدي هنا الإمكانات التي يمكنها أن تساعدك على تحقيق حلمك، هناك يا بنيتي في الولايات المتحدة الأمريكية يمكنك تحقيق ما تسعين إليه وبعد ذلك تعودين إلى مصر كملكة متوجة على عرش العلم.

قُلت له وأنا أعلم أن نصيحته لي صادقة:

– لقد حاولت يا أبي.. منذ شهور وأنا أسعى للتواصل مع الدكتور "مورفي" ولكني لم أفلح بعد.

قال بثقة وهو يشعل لفافة تبغٍ جديدة:

– ستنجحين يا بُنيتي، هو لم يهتم في البداية لأنه لم يكن يعرفك، ولم تنجحي أنتِ في جذب انتباهه، ولكن بعد أن قمت أنا بمراسلته أمس فسيسعى للتواصل معكِ ومعرفة ما لديكِ.

تعجبتُ كثيرًا مما قاله أبي، وأسعدني ما قاله كثيرًا، انصرفت من غرفته وأنا أُدركُ جيدًا أنني سأتسلم عما قريب رسالة من الدكتور "مورفي".. شكرًا أبي.

9

وقف المُقدم "هشام" أمام المشهد الرهيب للجثة المُعلقة من رقبتها إلى سقف الغرفة مذهولًا، من الجلي أنها جريمة "عشماوي" الجديدة، لا بصمات، لا دلائل، لا أخطاء، ذات التفاصيل، ذات اللمسات السحرية للقاتل، ذات اللافتة اللعينة التي تحمل اللغز الكبير الذي لا حل له حتى الآن "عشماوي".

جال المُقدم "هشام" ببصره في أرجاء المكان، وبرغم اعتياده على رؤية جُثث القتلى، إلا أن أطرافه كانت ترتعش، فالجثة المُعلقة من رقبتها إلى سقف الغرف كانت للنقيب "شادي طلعت الجارحي" الذي زاره في مكتبه أمس للاستفسار عما توصلت إليه تحقيقات النيابة في قضية "عشماوي".

أشعل "هشام" لفافة تبغ وضعها بين شفتيه وراح يمتص دخانها بنهم وهو يتجول في أرجاء مسرح الجريمة، يُفكر فيما يحدث حوله

وما يمكن أن يحدث بعد ذلك، «هل يتصيد عشماوي ضحاياه ممن يستفسرون عنه ويحاولون الإيقاع به؟!»، قال المُقدم "هشام" لنفسه وهو ينفث دخان سيجارته ويبحث بعينٍ خبيرة عن أي خطأ ارتكبه القاتل، «هذا يعني أنني أول المطلوبين لديه»، بات "هشام" مُتأكدًا من وجود قاتل فلا يمكن للأمر أن يكون مجرد حوادث انتحار عادية، "شادي" كان يتساءل عن القاتل ويحاول معرفة المزيد عنه، كما أنه ليس من النوع الذي يُنهي حياته بيده، «لا يبدو الأمر منطقيًّا وإلا لما كُنتُ حيًّا حتى الآن!، بل كان عشماوي هذا ليقتلني قبل أن يقتل شادي، يبدو أن شادي كان مُتورطًا في أمرٍ ما مع وائل الشريف وهو الأمر الذي استدعى أن يقتلهما هذا العشماوي».

رجال المعمل الجنائي يُعاينون مسرح الجريمة ويأخذون ما يحتاجونه من عينات عسى أن يجدوا دليلًا ما يُشير إلى القاتل، شعر المُقدم "هشام" بخطورة الأمر، فتلك هي مرته الأولى التي يقف فيها عاجزًا عن الإيقاع بمجرم ما، فمهما تبلغ دقة المُجرم في تنفيذ جريمته، ومهما تبلغ درجة ذكائه، لا بد أن يرتكب خطأً ما يُساعد على عملية القبض عليه، أما عندما يرتكب مُجرم ما هذا الكم من جرائم القتل بهذه الصورة الاحترافية من دون أن يترك خلفه دليلًا واحدًا، فإن الأمر يبدو غريبًا جدًّا.

***

في غرفتها بالمُستشفى حيثُ رقدت على فراش أبيض، يتـــدلى إلى جانبها أنبوب بلاستيكي طويل يبث المحلـــول في أوردتهـــا، بـــدأت "سوسن" تستعيد وعيها رويدًا رويدًا، وتتذكر تلك الدقائق العصيبة التي مرت عليها قبل أن تفقد وعيها، تذكرت صراخ "شـــادي" في وجهها وصفعه إياها، تذكرت مضاجعته إياهـــا بـــسادية وخـــواره المُنتشي، تذكرت تسرُّب وعيها ببطء، ومن خلف نافذة غيوم الغيبوبة تذكرت محاولاته لإفاقتها، أما أغرب ما تذكر أنها رأته ولا تعرف إن كان حقيقيًا رأته من خلف ستار الغيبوبة، أو أنه مجرد سراب زائف أو هلاوس بصرية صنعها عقلها لحظة تسرب وعيها منها.

تتذكر "شادي" وتوقفه عن مُحاولة إفاقتها، تتذكره وهو يعقـــد حبلًا غليظًا في سقف الغرفة، تتذكره وهو يمسك بلافتة صغيرة يضعها على صدره، تتذكره وهو يقف على مقعدٍ خشبي ويضع رأسه داخل الأنشوطة التي قام بعقدها منذ قليل، تتذكر لحظة ركلـــه للمقعـــد، تتذكر دماءً حارة قفزت من أنف "شادي" لترتطم بوجهها.

تتساءل "سوسن" في نفسها إن كان ما تتذكر أنها رأته حدث حقًا أم أنه مجرد صورة زائفة صنعها عقلها للانتقام المُناسب الذي يرغـــب أن يحدث لشادي!

تشعر بنوبة صداع شديدة فتضع يدها اليسرى فوق أنفها وتضغط بشدة مُحاولة استجماع شتات فكرها، تعود ذاكرتها مـــرة أخـــرى

مُحملة بصورة لشخص غريب كان يقف أما جثة "شادي" المُعلقة وهو ينظر لها بثبات، هو نفسه الرجل الذي ناول "شادي" اللافتة التي قام الأخير بوضعها على صدره قبل انتحاره.

ينظر لها الرجل بوجهه الغريب المُشوه، كان نصف وجهه المُحترق مُخيفًا، ولكنها لم تكن تستوعب شيئًا حينها، تتذكره وهو يحملها على ذراعيه وتفقد ذاكرتها بعض ما حدث، ولكن آخر ما تذكره هو رقادها على المقعد الخلفي لسيارة ما، يجلس فيها الرجل صاحب الوجه المُشوه إلى جوار السائق.

***

ثلاث دقات خفيفة دقها "هشام" بيده على باب الغرفة، ثم فتحه ودلف منه للداخل، طالعه العميد "طلعت" الجالس على كرسي مكتبه مستندًا بكوعيه إلى سطح المكتب ويطوق وجهه بكفيه بينما تنهمر دموعه من عينيه لتُبلل سطح المكتب.

تبًا لتلك الأحداث الغريبة التي بدلت ملامح هذا الرجل وملأها بالكآبة ونكست رأسه بعد أن كان صلبًا شامخًا، «البقاء لله يا سيدي»، قال المُقدم "هشام" بحُزنٍ شديد، لم يجبه العميد "طلعت" بشيء، فجلس الأول في مقابلته، «أعلم يا سيدي أن ما حدث كان قاسيًا، ولكنك رجُلٌ تؤمن بقضاء الله وترضى به، ولا يجب أن يراكَ الناس مهزومًا هكذا بعدما اعتادوك شامخًا»، رفع العميد "طلعت"

رأسه عن كفيه وأومأ لهشام موافقًا، «أخبرني يا هشام: ألا يوجد أي جديد؟»، قال وهو يُجفف دموعه عن خديه بمنديل ورقي، «نعم يـــا سيدي، هناك جديد»، قال "هشام" بحماس فالتفـــت إليـــه العميـــد "طلعت" بلهفة، «وجد رجال المعمل الجنائي بصمات غريبة في مسرح الجريمة، وبالكشف عنها وجدنا أنها لعاهرة مُسجلة لدينا تُدعى سوسن حامد وشُهرتها سوسن أستك وتعمل مع القوادة الـــشهيرة مديحـــة سُلطان».

تجهم وجه العميد "طلعت" عند سماع ما قاله المُقدم "هشام"، «لا يمكن لتلك العاهرة مهما تبلغ من قوة أن تقوم بشنق شادي وتعليقه في سقف الغرفة بهذه الصورة، لا يبدو لي الأمر منطقيًّا»، قال هـــذا الأول بينما ازدادت ملامح وجهه تجهُمًا، «يبدو أنني على مـــشارف فضيحةٍ مُدوية إذا ما اكتشفت النيابة أن شادي كان على علاقة بتلك العاهرة».

«نعم يا سيدي»، قال "هشام" بضيق، «يبدو أن الأمر كذلك، فلا شيء يُبرر وجود تلك العاهرة في شقة المرحوم شادي سوى أنه كان على علاقة بها»، شعر هذا الأخير بأن كلماته لها وقع قـــاسٍ علـــى العميد "طلعت"، «ولكنك يا سيدي لست مسئولا عـــن تـــصرفات النقيب شادي رحمه الله»، قال المُقدم "هشام" مُحاولًا التخفيف من أثر كلماته على العميد "طلعت" الذي لم تختفِ الكآبة عن وجهه، فنهض الأول من مقعده، «أستأذنُكَ يا سيدي، يجبُ عليّ أن أبحثَ عن تلك

العاهرة لأقوم باستجوابها، ربما كانت خيطًا مُهمًّا في هذه القــضية»، قال "هشام" وهو يهمُّ بالانصراف، «أخبرني إذا ما كـــان هنـــاك أي جديدٍ يا هشام»، قال العميد "طلعت بلهجةٍ شبه مُتوســـلة، فأومـــأ "هشامٌ" برأسه وانصرف خارجًا من الغرفة.

10

ذهبتُ إلى القرية الصغيرة لزيارة أبي "عرفة الذي احتل المرض جسده وفرض سطوته عليه، فأصابه الهزال، الرجل الذي فقدَ ابنه فتملك الحزن من قلب امرأته فبقي إلى جوارها ليرعاها يحتاج الآن إلى من يرعاه.

راقدًا على فراشه ذي الإطار النحاسي، يتدثر بغطائه الخشن، تجلس إلى جواره زوجته المكلومة، «ولا يعجبك قبري وتزويقه من فوق واسع وتحت يا ضيقه... ولا يعجبك قبري ولا رخامه من فوق واسع وتحت يا ظلامه»، تقول "جميلة" زوجة أبي "عرفة" في عديدها المقيت، أمقت أن أراها بهذه الصورة، وأمقت نظراتها المُتهِمة إياي، يُشير لها أبي "عرفة" بيده فتخرج من الحجرة تاركةً إياي وحدي معه ولا تنسى أن تحدجني بنظرة مُتهمة أخرى قبل أن تخرج.

أقترب من أبي "عرفة"، وأجلس على حافة فراشه إلى جوار جسده المُمدد، أنظر إلى عينيه فأرى نظراته الحانية التي طالما اعتدمّا منه، «كيف حالك يا بُنيّ؟»، يقول بصوته الواهن الذي يُجاهد كي يخرُج من حنجرته، «بخير»، أُجيبه فتظهر ابتسامته المُشعة على شفتين طالما تكلمتا بالحُسنى، «أعلمُ أنك وحيدٌ في الحياة يا ولدي، كما أعلمُ أنك تتميز عن الجميع، ولكن يجب عليك أن تعلم ذلك جيدًا يا بُنيّ، أنتَ مُختلف، واختلافك هو سلاحك، كُتلة من الخير في عالم كامل يحكمه الشر، لا تهتم كثيرًا بما يراه الناس فيك، فالناس لا ينظرون إلى ما هو أعمق من مظهرك الخارجي، نصف وجهك الذي يراه الناس مُشوهًا قد يكون هو ما يُميزك عن الآخرين»، يقول أبي "عرفة" فأشعُر بالحيرة الشديدة لما قاله، لم يُحدثني يومًا عن نصف وجهي المُشوه وكأنه لم يكن يراه، فلماذا قال ما قاله الآن؟!

يمد يده أسفل وسادته التي يستند برأسه فوقها ويُخرج مظروفًا صغيرًا، يناولني إياه، «خُذ يا ولدي، هُنا ستعرفُ من أنت، ولكن عدني ألا تفتحه إلا بعد موتي، عدني يا ولدي»، يقولها بلهجة شبه متوسلة وهو يشد على ذراعي بقوة يحثني أن أقولها، «أعدُكَ يا أبي»، أُجيبه بصدق.

ينظُر ليّ في حنوٍ بالغ ويبتسم ابتسامته الواثقة، يشد على ذراعي بقوة أكبر، «عدني يا ولدي أن تعتني من بعد موتي بزوجة أبيك أم

صبحي»، يقول بذات اللهجة المتوسلة، «مهما تبلغ نظراتها الحادة إليك، كُن حنونًا عليها رفيقًا بها، فهي أُمٌّ فقدت ابنها بصورة مُشينة وستفقد عما قليل زوجها».

«أعدُكَ يا أبي»، أقولها صادقًا بينما تتلاطم أمواج الفكر في عقلي، أخرُج من الغرفة مُحملًا بالأفكار الصاخبة، أجلس على المصطبة الأسمنتية أمام باب الدار أُفكر فيما قاله أبي "عرفة"، أُفكر فيما عاهدتُ نفسي عليه، أعلم أنني مُتميزٌ من دون أن يقولها ليّ، ولكن يجبُ عليّ أنَ أبُثَّ تميُّزي هذا للعالم كله، وأُخلصهُ مما هو فيه من فساد.

عاهدتُ نفسي من قبل أن أُنهي حياة كُل من لا يستحق الحياة، كل من لم يُحقق هدف الله من خلقه، كل من كان سببًا في انتشار الفساد، كل من كانَ مُفسدًا، ولكن لا يجب أن يكون القتل مُقتصرًا على قتل المُفسد فحسب، بل أن يكون القتل مشاعًا للرعب في قلوب كل المفسدين على الأرض، يجب أن أكون قاتلًا شرعيًا يُنفذُ حُكم الإعدام بلا استئناف أو نقض، وفق قانون واحد «الموت للمُفسدين»..

«عشماوي»...

"عشماوي" هو الاسم الذي يجب أن يكونَ ليّ، هو الاسم الذي يجب أن يخشاهُ كل من يرتكب خطأً في حق البشرية، "عشماوي" هو اسم المُهمة الموكلة ليّ من السماء..

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العطيفي"

«الثلاثاء الموافق 1984/9/13»

لم يعد للحياة معنى بعد رحيل والدي عنها، رحلَ الرجل الذي قدَّمَ للبشرية الكثير من الإنجازات، صُحُف قليلة نشرت له نعيًا صغيرًا لا يليق باسمه أو ما قدمه للعلم.

أصابني اليأس عندما أخبرتني والدتي عن قرارها بالرحيل إلى بولندا حيث تُقيم شقيقتها الكُبرى، ورغبتها في اصطحابي معها للاستقرار هناك، لا يُمكنني أن أحيا بعيدًا عن المكان الذي يجمع كل ذكرياتي السعيدة مع أبي.

خلافات ومُشادات ونقاشات حادة بيني وبينها حول موضوع السفر أو عدمه، تقول إن لا شيء أصبح يربطنا بهذا المكان بعدما رحل

عنه والدي، فقامت بتجهيز أوراقها للسفر كوسيلة منها للضغط عليَّ حتى أرضخ لرغبتها، ولكني حقًّا لا أستطيع، ثلاثة أشهر مرت منذ وفاة أبي ولا أكادُ أُصدق أنه رحل، فكيف لي أن أُصدق قُدرتي على الحياة بعيدًا عن المكان الذي كان يحيا هو فيه؟!

مُنذ شهرين تقريبًا وصلني خطابٌ من الدكتور "ستيفن مورفي" يُعرب فيه عن رغبته في سفري إلى الولايات المُتحدة الأمريكية، حيثُ يُمكننا أن نتناقش في موضوع البحث، كانت هذه هي هدية والدي الأخيرة ليّ قبل رحيله عن عالمنا، ولكني لم أستطع قبولها وقتئذ، كان حُزني على فقد أبي أكبر من قُدرتي على المواصلة والاستمرار، ولكن بما أن والدتي قد قررت السفر والابتعاد يبدو أنها إرادة السماء التي ترغب في مواصلتي البحث، فتحثني على الاستمرار.

تذكرتُ كلمات والدي الأخيرة ليّ عندما حثني على السفر إلى الولايات المُتحدة الأمريكية، حيثُ إنها – على حد قوله – المكان الذي يُمكنه أن يوفر لي مُقومات النجاح الذي طالما حلمتُ به.

أرسلتُ خطابًا إلى الدكتور "مورفي" أخبره فيه قبولي دعوته، وكان قراري هذا هو القشة التي قصمت ظهر البعير، فتعقدت علاقتي بوالدتي التي رأت أنني لا أوافق على ما تطلبه مني أبدًا، وقررت مواصلة ما انتوته فسافرت إلى بولندا تاركةً إياي لأفعل ما أُريد.

11

بخطوات مُثقلة بالهموم سارت "سوسن أستك" في الشارع بعد خروجها من المُستشفى لا تعرف لها طريقًا تسلكه، اقترب منها شاب يبدو أنه يعرفها جيدًا بينما لا تتذكره هي، سألها الذهاب لقضاء ليلة صاخبة معه، لا نقود بحوزتها حتى تستقل سيارة أجرى لمواصلة طريقها في العودة إلى منزل "مديحة سُلطان"، كَم تحتاج إلى تلك النقود التي ستأخُذها مُقابل قضائها الليلة مع هذا الشاب! ولكنها ما كانت ترغب في تقديم جسدها لأي رجل مرة أخرى، رفضت عرض الشاب وردته خائبًا واستكملت طريقها بقدمين لا تقدران على الخطو وجسد أنهكته ضربات "شادي" المؤلمة وتركت عليه زرقتها القاتمة، لم يستطع عقل "سوسن" أن يقنعها بأن ما رأته أثناء سقوطها في بئر الغيبوبة كان حقيقيًا.. "شادي" لم يمُت، تثِقُ بذلك ولكن لماذا لم يسأل عنها طوال

الفترة التي قضتها في المُستشفى إذا لم يكن قد مات؟! هل يخشى أن تحوم الشبهات حول علاقته بها؟ لماذا إذن يُضاجعها؟ هل هي كما قال لها عبدة له يمكنه أن ينالها وقتما يشاء من دون أن يكون لها عليه أية حقوق حتى في مجرد السؤال عنها في مرضها الذي كان هو سببه من الأساس؟!

الأغرب أن "مديحة سُلطان" القوادة لم تسأل عنها على الرغم من أنها – سوسن – كنزٌ ثمينٌ بالنسبة لها، فهي سبيلها في الحصول على الحماية.

بررت الأمر لنفسها بأن "مديحة سُلطان" لا تعرف مكانها، كما قد تظن أنها بقيت في شقة النقيب "شادي"، وهي لا تستطيع أن تطلب من "الباشا" أن يُعيدها إليها، فهي عاهرة لرجلٍ واحد كما قال لها "شادي".

تبًّا لتلك الحياة القاسية التي يُجبر فيها الشخص على أن يكون عبدًا لشخصٍ آخر لأنه يتميز عنه بالمال أو السلطة فقط! أي حياة تلك التي تحياها هذه البائسة؟!

سيارة مُسرعة قادمة من الخلف بسرعة كبيرة فاصطدمت مرآتها اليمنى بكوع "سوسن" الأيسر، ولكن السيارة تابعت سيرها دون أن يُعريها السائق أدنى اهتمامٍ، سَبتهُ في سِرِّها، وعلمت أنها قد تفقد حياتها في أي لحظة من دون أن يُثير هذا اهتمام أي شخص، هي

مُجرد سلعة رخيصة تُباع وتُشترى، ومن المُمكن الحصول على بديلٍ لها بسهولة.

لو كانت "سوسن" تعرف لها مكانًا آخر يُمكنها أن تحيا فيه حياةً نظيفة من دون أن تضطر لتقديم جسدها مُتعةً للراغبين بها، لكانت غيرت من أسلوب حياتها، لم تكن مثل باقي زميلاتها اللاتي استسلمن لحياة العُهر لا يُحاولن التغيير من أنفُسهن أو العيش حياة أفضل.

كُلهُن غارقات في وحل الدعارة، وحدها كانت ترغب في الخروج من بِركته لتتطهر من أوساخ الرذيلة عسى أن تُصبح يومًا ما إنسانة مُختلفة تتقبل ذاتها وتحترم حياتها.

وصلت إلى البناية حيث بيت الدعارة الذي تقوده "مديحة سُلطان" ملاذها الوحيد، نظرت إلى البناية بكُرهٍ شديد، تُقدم قدمًا وتؤخر أخرى، تعلم أنها إن لم تعد إلى "مديحة سُلطان" فسوف تقضي حياتها مُشردة في الشوارع لا تعرف لها مأوى، وإن عادت فهذا يعني إقرارها بأنها جارية النقيب "شادي" أو أي شخص آخر تختاره لها قوادتها.

صعدت درجات السلم بتثاقل، قدماها لا تقويان على الصعود، ولكنها تحاملت على نفسها حتى وصلت إلى باب الشقة فوجدته مفتوحًا، تعجبت من الأمر كثيرًا، تلك هي المرة الأولى التي يترُك فيها "إبراهيم الغزاز" باب الشقة مفتوحًا، فباب الشقة يجب أن يكون مُغلقًا حتى تستتر الخطيئة في حماه!

دلفت من باب الشقة فلم تسمع صوتًا لأحد، سارت في الردهة الطويلة المُفضية إلى الصالة، فتسمرت قدماها وهالها المنظر البشع الذي انعكس في عينيها ففتحتهما عن آخرهما غير مُصدقة.

في صالة الشقة كانت "مديحة سُلطان" بجسدها المُترهل تتدلى من رقبتها بحبلٍ غليظ مُعلق بمروحة السقف، عيناها مفتوحتان من دون أن تريا وعلى صدرها المُترهل عُلقت لافتة كُتب عليها كلمة "عشماوي".

الخوف الذي تملك من قلب "سوسن" لم يقُدها للهروب من الشقة، بل بقدمين ترتعشان ركضت تُفتش في جميع الغرف بحثًا عن زميلاتها، عسى أن يُقنعها أن ما رأته منذ لحظات لا يغدو أكثر من وهمٍ تلاعب بعقلها، فتحت باب الغرفة الأولى فوجدت زميلتها "ثُريا" مُعلقةً من رقبتها بذات التفاصيل، في الغرفة الأُخرى كانت "علياء" زميلتها اللبنانية مُعلقةً من رقبتها بذات التفاصيل، في الغرفة الثالثة كانت "يُسرا" وفي الرابعة "سميحة".

كأنما أصابها مَسٌّ شيطاني ركضت "سوسن" تلطُمُ خديها وخرجت من باب الشقة، صعدت درجات السلم إلى الدور الأعلى حيث الشقة الأخرى، كان بابها مفتوحًا مثل سابقتها، دلفت من الباب كالمجنونة فاصطدمت نظراتها بتلك اللافتة اللعينة التي تحمل ذات الكلمة "عشماوي" تُزين صدر "إبراهيم الغزاز" المُعلق من رقبته بذات التفاصيل.

أدركت "سوسن" أن باقي زميلاتها فقدن حياتهن بالطريقة ذاتها فعادت إلى الخارج وهبطت درجات السلم مصعوقة مما رأت، خرجت من باب البناية ثم توقفت أمامه لا تقوى على تحريك قدميها المُرتجفتين، ما هي إلا ثوانٍ معدودات وقفتها أما باب البناية وكأنها في انتظار شخصٍ ما، توقفت سيارة شرطة أمامها ونزل من صندوقها الخلفي أربعة عساكر ومُخبر أمسكوا بها وجرُّوها إلى السيارة، حاولت أن تنطق بأي كلمة ولكن شفتيها التصقتا بعضهما ببعض وتحجر لسانها في فمها فتمتمت بكلمات غير مفهومة، «ماذا تقولين يا امرأة؟»، قالها المُخبر القابض على معصمها بقوة، فحاولت أن تُحرك لسانها بصعوبة، ومن بين شفتيها خرجت الكلمة المُحيرة الرهيبة، «عـــ... عـــ... عشماوي».

***

جلس المُقدم "هشام" على مقعده في شرفة منزله وجلست زوجته الدكتورة "إيمان" في مقابلته، بينهما منضدة خشبية صغيرة تحمل كوبين من الشاي الساخن، التقطت هذه الأخيرة كوب شاي، «تفضل يا حبيبي»، قالت وهي تناول الكوب لزوجها الذي تناوله منها وأشعل لفافة تبغ راح يعُب دخانها، «أشعر بشيء غريب في قضية هذا القاتل»، قال "هشام" وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء، «الأمر كله غريب»، قالت "إيمان" مُفكرة، «بينما يمتلئ العالم من

حولنا بهؤلاء القتلة المُتسلسلين مثل تيد بوندي1 وزودياك2 فإننا لم نواجه من قبل هذا النوع من القتلة في مصر»، صمتت قليلًا ثم استطردت، «هذا بالطبع باستثناء ريا وسكينة».

«من غير الممكن أن يتم القتل بهذه السهولة والاحترافية من دون أن يترك القاتل أي أدلة أو بصمات خلفه، لم أكن أصدق في وجود قاتل على هذه الدرجة من الاحترافية قبل أن أتولى أمر هذه القضية»، قال "هشام" فنظرت "إيمان" في عينيه، «معك حق»، قالت هذه الأخيرة، «يبدو أن القاتل قام بتنفيذ جريمته بسهولة كبيرة وكأنه يقوم بعمل مُحبب إلى قلبه، أو هدفٍ أسمى من مجرد القتل للقتل»، توقفا عن الحديث برهة رشف فيها كل منهما كوب الشاي الخاص به، «ما آخر ما توصلت إليه؟»، سألت فأومأ برأسه في أسف، «عثرنا في شقة شادي على بصمات إحدى العاهرات بجوار جثته، وأصدرت النيابة أمرًا بالقبض عليها واستجوابها»، قال وقد بدا الضيق واضحًا على ملامحه.

«لحظة»، قالها "هشام" وهو ينتفض من مقعده في لهفة وكأنه وجد الحل لهذا اللغز، «كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟!»، نظرت له

---

[1] تيد بوندي Ted Bundy من أشهر القتلة المُتسلسلين في الولايات المُتحدة الأمريكية، قتل واغتصب ما يزيد عن 30 شخص في الفترة بين 1974 - 1978

[2] زودياك Zodiac هو اسم مستعار لأحد القتلة المُتسلسلين، هويته مجهولة حتى يومنا هذا.

"إيمان" في حيرة وهي تتساءل في نفسها عما وجده زوجها، «ما الأمر يا هشام؟»، قالت بفضول شديد.

«كل ضحايا عشماوي ماتوا شنقًا»، قال "هشام"، «كيف لم نربط من قبل بين اسم عشماوي وهو اللقب الذي يُطلق على من يُنفذ حكم الإعدام في المجرمين وبين موت كل الضحايا بالطريقة ذاتها وهي الشنق»، قطبت "إيمان" حاجبيها مُحاولة استيعاب ما قاله زوجها، «لا أفهم»، قالت بعدما استعصى عليها استيعاب الأمر.

«قام القاتل بتعليق لافتة تحمل كلمة عشماوي على صدر كل ضحية قبل قتلها»، قال "هشام" مُفسرًا لزوجته، «وهذا يعني أنه يدلنا على أن هؤلاء الأشخاص لم يقوموا بشنق أنفسهم بل إن هناك من قتلهم عامدًا»، كانت كلماته غريبة لا يقبلها عقل "إيمان" فزمت شفتيها في عدم فهم، «إذا كان الأمر هكذا فلماذا وضع القاتل مقعدًا مقلوبًا أسفل جثة كل ضحية من ضحاياه لتبدو كحادث انتحار؟! ألا يُريد أن يدلنا أنهم لم يقتلوا أنفسهم؟!»، كان سؤالها منطقيًّا ولكنه كان يملك إجابة.

«استخدم القاتل اسم عشماوي ليُخبرنا أن ضحاياه لم يقتلوا أنفسهم وأن هناك من قتلهم، وكما تعلمين يا عزيزتي أن عشماوي هو لقب القاتل الشرعي الوحيد ووظيفته تنفيذ حكم الإعدام في المجرمين المحكوم عليهم بالموت»، صمت قليلًا ثم تابع، «يرى القاتل أن

كل ضحية من ضحاياه كانت تستحق الموت لذنب ما اقترفته في حياها، ومن الجدير بهم أن يقتل كلٌّ منهم نفسه، ولكن أحدًا منهم لم يفعل، فجاء عشماوي ليُنفذ فيهم حكم الإعدام كعقابٍ لما اقترفوه من ذنوب»، أنهى "هشام" حديثه وصمت مُنتظرًا سماع رأي "إيمان" فيما قاله.

«مُهمة من السماء»، قالت "إيمان" بعفوية، فنظر لها "هشام" بعينين مُتسائلتين: «ماذا؟»، سأل هذا الأخير فاقتربت منه الأولى تُفسر له ما تعنيه، «القتلة المُتسلسلون أنواع عديدة، فهناك ما يُسمى القاتل للقتل وهو القاتل المُتسلسل الذي يجدُ لذةً في قتل ضحاياه فلا يتوقف عن القتل وكأنها هواية يُحب ممارستها، وهناك القاتل السادي الذي يجدُ لذةً جنسية في قتل ضحاياه وغالبًا ما يكون ضحايا هذا القاتل من النساء، يُشبع القاتل شهوته الجنسية في مُضاجعتهن ومن ثم قتلهن، وهو أبشع أنواع القتلة المُتسلسلين، وهناك ما يُسمى بمهمة من السماء وهو القاتل الذي يرى في نفسه المُخلص أو المسيا المُنتظر الذي جاء لخلاص العالم، وهو يقتل من يرى أنه شهواني أو زانٍ أو سارق أو من يُفسد في الأرض بأية صورة»، قالت فبدت كلماها مُقنعةً له بشكل كبير.

«ولكن يبقى هناك أمر لا يمكن تفسيره»، قال "هشام" بعدما أصغى لما قالته زوجته حتى انتهت من حديثها، «كيف يقوم القاتل

بهذا الكم من جرائم القتل بهذه السهولة من دون أن يترك خلفه دليلًا واحدًا يقودنا إليه؟!».

«يختلف القتلة المُتسلسلون في معدلات ذكائهم، فمنهم من يكون ذكاؤه متوسطًا أو أقل من المتوسط، ومنهم من يكون مُعدل ذكائه عاليًا يصل في بعض الأوقات إلى حد العبقرية، ولكنهم يتفقون جميعًا في شيء واحد وهو أنهم بعيدًا عن تلك الأوقات التي يقومون فيها بقتل ضحاياهم يحيون بين الناس بصورة طبيعية جدًّا يصعب معها تفريقهم عن أي شخصٍ سَوي.. أعتقد يا زوجي العزيز أنك أمام مُهمة صعبة للغاية في الإمساك بقاتل غير عادي يبدو طبيعيًّا جدًّا»، قالت "إيمان" في حين صمت "هشام" مُفكرًا فيما قالته.

دق هاتفه المحمول فقام بالرد وأنصت إلى ما قاله مُحدثه، «ماذا تقول؟ هل هي معكم الآن؟ إنني قادمٌ على وجه السرعة»، قال "هشام" وأغلق الخط، فنظرت له زوجته مُتسائلة، «لقد استطاعوا القبض على تلك العاهرة التي وجدنا بصماتها إلى جوار جُثة شادي»، قال "هشام"، «يجب أن أذهب الآن».

***

12

رجل عجوز واهن يستند إلى عكازه حتى يمكنه الحركة ومواصلة الحياة، تحطم العكاز وخيم العجز عليه فارضًا سطوته.. تلك هي الصورة التي رأيتُ نفسي عليها بعد رحيل ذلك الرجل المثالي عن عالمنا القاسي تاركًا إياي وحيدًا في متاهة الحياة أتخبطُ في طُرُقٍ أجهلُ معالمها ولا أعرف ليّ مخرجًا.

مات أبي "عرفة" وما بقي ليّ سوى زوجته المكلومة بنشيجها الذي يُمزق نياط القلوب، ما كُنتُ أستشعر عديدها من قبل، ولكن تحت وطأة حزني على فراق أبي تمكنت كلماتها مني وجثمت على صدري لتُحكم وثاق حُزنها على قلبي، «يا حزن قلبي عليك يا بَينا الواعي.. تركتنا كالغنم نرعى بلا راعي»، دامعة تُنشد "جميلة" زوجة أبي "عرفة" فتنساب الدموع من مُقلتيّ وتُطاردني أحداثٌ كثيرة عشتها

معه، حنانه البالغ، رضاه التام، صمته البليغ، لسانه الفصيح، عقلـــه المُدبر، كلها صفات اجتمعت بذورها في تربة واحدة، فأثمرت شجرةً وارفة تُظلل عل كل من يحتمي بظلها.. أبي "عرفة" شجرة العطاء التي جاء الموت ليقتطعها بمنجله المقيت.

عهدت لعبد المقصود جارنا وصديق أبي في الاعتناء بجميلة زوجة أبي، وعدتُ لُمتابعة عملي حتى أتمكن من توفير ما يلزم من المال لبقائي وزوجة أبي على قيد الحياة، ما أعجب أن تسعى لمواصلة حياة تتمنى الخلاص منها!

في مكاني المُعتاد أجلس بين كومة الكتب المتراصة بعضها إلى جوار بعض على الأرفف الخشبية مُمسكًا بين يديّ كتابًا يحكي عن الحيـــاة من بعد الموت، دخل المُلحد "فريد منصور" من باب المحل، صافحني وعزاني عن موت أبي بطريقة عملية تخلو من أي عاطفة أو أي مُحاولة لإظهارها، «البقية في حياتك»، قالها ونظر للكتاب بين يديّ، «أتؤمن حقًا في وجود حياة أخرى من بعد الموت؟!»، سأل فأومأتُ برأســـي بمعنى أنني أؤمنُ بذلك، ظهرت ابتسامة شاحبة على شفتيه، هل قابلت يومًا من يُخبرك كيف كانت حياته الأخرى من بعد الموت؟!»، أسئلته المُستفزة تُثيرُ جنوني، يعتقد هذا الرجل أن الكون محدود بقدرة عقله على الإدراك وقدرة عينيه على الرؤية، وضعت الكتاب جانبًا، «ألا ترى أن هناك أمورًا لا يُمكن لعقولنا إدراكها؟»، سألته مُجيبًا علـــى سؤاله، فنظر ليّ مليًا، «أتعلم يا صديقي، الإنسان مغرور جدًا لا يقبل أن ينتهي وجوده مع انتهاء سُني حياته، لذلك يحاول إقنـــاع نفـــسه

بوجود حياةٍ أخرى يحياها من بعد الموت، حيلة دفاعية رخيصة صنعها الإنسان ليشعر أنه خالد، ذات الحيلة القديمة التي كـان الفـراعين القُدماء يؤمنون بها في اعتقادهم بالبعث والخلود»، قال يشرح إلحاده، فنهضت من مكاني وقد تملك الغضب مني، «أشعُرُ ببعض الملل، مـا رأيك أن تسير معي قليلًا بينما نُتابعُ حديثنا؟»، سألته.

«لا مانع لديّ»، أجاب موافقًا، فأخذتُ حقيبتي الجلدية الصغيرة التي أصبحت لا تُفارقني أبدًا، ثم أغلقت باب المحل وسرتُ إلى جواره أستمع إلى ما يقوله، «الأديان ذاتها أوجدها الناس لتُقـر وجـود الله الخالد وتُرسي في عقول البشر الإيمان بالحياة من بعد الموت والثواب والعقاب»، قال مُؤمنًا بما يقول، فشعرتُ بامتعاضٍ شديد من كلماته، «وماذا تعرف عن الأديان؟!»، سألته مُستنكرًا ما قاله، فلم تبدُ على وجهه أية علامة من علامات الضيق، وبدا واثقًا بنفسه، «أعرف ما لا تعرفه أنت.. ولا أنكر أن الأديان صنعت نظامًا جيدًا يُرشد الناس إلى التعقل، ولكن الهدف من هذا التعقل كان الخوف من عقاب الله بعد الموت لما اقترفناه من أخطاءٍ في حياتنا، وهو ما جعل الإنسان يفقـد الكثير من مُتع الحياة، ويهدر الكثير مما في يده حرصًا على الفوز بمـا ليس في يده، وقد لا يكون موجودًا من الأساس، وهـو مـا يُقـره العقل»، كلماته القوية ولهجته الواثقة قد يُزعزعـان إيمـان بعـض الأشخاص ضِعاف النفوس، ولكني ما كُنتُ يومًا من هؤلاء، أشـعُر دائمًا أن لِيّ هدفًا من حياتي، ولديّ مهمة أسعى إلى تحقيقها.

«أتعلم يا صديقي، إن لم أكن مُتحررًا من كل قيود الدين التي تُكبل حُريتي لكُنتُ قد انتحرتُ من زمن»، صمتَ قليلًا وظهرت على شفتيه ابتسامة مقيتة، «ولا تقُل ليّ إنني بذلك سأكون كافرًا، فأنا من وجهة نظرك كافر من دون أن أنتحر، أعلم رأي الدين جيدًا في هذه القضية!»، قال ساخرًا.

«أتعلم هذا حقًا؟»، قُلتُ ساخرًا من كلماته قاصدًا أنه لا يؤمن بما نصت عليه الأديان، فصمت قليلًا، «يا أيُها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفُسكُم إن الله كان بكم رحيمًا ومن يفعل ذلك عدوانًا وظُلمًا فسوفَ نُصليه نارًا وكان ذلك على الله يسيرا[1]»، قال الآية الكريمة مُبرهنًا على معرفته بما نص عليه الإسلام في هذا الشأن، «هذا هو رأي الإسلام في قضية الانتحار يا عزيزي، وهو ذاته ما أقرتهُ المسيحية من قبل»، صمتَ قليلًا ثم، «أمَ لستُم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القُدس الذي فيكم، الذي لكُم من الله، وأنكُم لستُم لأنفُسكُم[2]»، ابتسم ابتسامته الشاحبة المقيتة، «كما قُلتُ لك الأديان كُلها تتشابه في أغراضها في إفساد حياة الإنسان الحقيقية خوفًا من فقدان الحياة الأخرى غير المُؤكدة»، عند هذا الحد كُنتُ قد وصلتُ

---

[1] النساء 29–30

[2] رسالة كورونثوس الثانية 19:6

إلى ذروة غضبي، فما كان منه إلا أن زاد من غضبتي، «أتعلم، أنا لا أهتمُ بتلك الحياة الأخرى التي لا يقبلها عقلي، كل ما أهتمُّ به تلك الحياة التي أحياها الآن، أُريدُ أن أجني كل المُتعة قبل أن تنتهي حياتي فتفنى روحي، شربتُ كل أنواع الخمور، ضاجعتُ من استطعت من النساء، واستحللت لنفسي كل ما حرمته أديانكم و...»، عند هذا الحد لم أعد أطيقُ صبرًا، فاض قلبي بالغضب، نظرتُ حولي فما وجدتُ أحدًا، فتحت حقيبتي وأخرجت منها الحبل المجدول المعقود كأنشوطة مشنقة، اللافتة التي تحمل كلمة القضاء العادل والمُرعب، نظرتُ في عينيه نظرةً أخيرة، «أتعلمُ أن الموت لا يأتي إلا عندما تدعوهُ؟!»، قُلتُ فلم يفهم ما أرمي إليه، ونظر لي ببلاهة لم أرها في عينيه من قبل، «لقد استحققت الموت يا صديقي فاستحقك الموت، وصدر عليك حُكم العدالة بالموت شنقًا».

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الأربعاء الموافق 1984/10/10»

في الولايـات المُتحـدة الأمريكيـة كـان اسـم والـدي الـشهير دافعًـا للدكتور "ستيفن مورفي" في استقبالي بحفاوة شـديدة وكـأنني علـى قـدر كبير من الشهرة، كان رجُلًـا ودودًا قـام بترتيـب كـل شـيء بدايـة مـن إجراءات السفر وإنهاء الأوراق حتى مكان إقامتي.

اليوم هـو الثالـث لـيّ في الولايـات المُتحـدة الأمريكيـة، اصـطحبني الدكتور "مورفي" معه إلى منزل كبير في منطقة هادئة جدًا، أخبرنـي أن هذا المنـزل كـان لأبويـه قبـل وفاتهمـا، وأنـه الآن بـلا سـاكن يقطنـه، أخبرني أنه يُرحب بانتقالي إليه بدلًا من تكاليف الفندق الباهظة.

قُمنا بنقل حقائبي إلى المنزل ووعدني عما قريب أن يصطحبني معـه إلى معمله الذي خصصته لـه إحـدى الهيئـات العلميـة الكـبيرة، وأنـه

سوف يُعرفني إلى فريق العمل الخاص به، حاولتُ أن أُناقشه في بعض الأمور ولكنه رفض قائلًا:

- قريبًا جدًا سوف نتحدث في كل شيء، أعلمُ أنكِ مُتعبة من تغيير الطقس والسفر، استريحي الآن وسوف نتحدث لاحقًا.

استغللت الوقت في مُراجعة النقاط العريضة في موضوع البحث الخاص بيّ، لا أُريد أن أبدو حمقاء عندما أُقابل فريق العمل الخاص بالدكتور "مورفي".

***

13

أصر اللواء "طلعت الجارحي" أن يجري التحقيق في مكتبه حيثُ جلس على مقعده الضخم يستمع إلى التحقيق الذي يُجريه المُقـــدم "هشام" الجالس أمامه في مواجهة "سوسن أستك" المُضطربة ذهنيًّـــا وتبدو عليها أمارات الجنون، بينما جسدها كله يرتجـــف كورقـــة في مهب الريح، وتُتمتم بكلمة واحدة.. "عشماوي".

«ماذا تعرفين عن مقتل النقيب شادي؟ وما ســـبب وجـــودك في شقته ليلة الحادث؟»، سأل المُقدم "هشام" وهو ينظر إلى "سوســـن" التي انتبهت للحظة عند سماعها خبر مقتل النقيب "شادي" وكأنهـــا لم تكن قد سمعت خبر مقتله من قبل، ارتجفت شفتاها قبل أن تخرج من بينهما ذات الكلمة التي ظلت ترددها منذ لحظة القـــبض عليهـــا.. "عشماوي".

«اهدأي يا سوسن»، قال المُقدم "هشام" مُحاولًا طمأنتها حتى يُمكنها أن تتكلم، «نحن لا نتهمك بشيء، فقط نُريد مساعدتك، بصماتك في مكان الجريمة، إن لم تتعاوني معنا ستكونين أنتِ المُتهم الأول في هذه القضية، التقطي أنفاسك واهدئي وأخبريني ماذا تعرفين؟».

هدأت "سوسن" قليلًا ولكنها لم تكن على ما يرام، حاولت أن تتكلم فخرج الكلام من بين شفتيها مُتقطعًا، «مديحة سُلطان.. قوادة.. عاهرة.. أنا.. شادي.. يضاجعني.. يضربني.. شنق نفسه.. رجل.. نقلني إلى المُستشفى.. وجه مُحترق.. مديحة سُلطان.. مشنوقة.. إبراهيم الغزاز.. ماتوا.. كلهم»، لم يفهم المُقدم "هشام" شيئًا من لهجتها المُتلعثمة وكلماتها المُتقطعة، فنظر إلى اللواء "طلعت" نظرة تعني «هل تفهم شيئًا مما قيل؟»، أومأ الأخير برأسه أنه لا يفهم شيئًا، فعاد المُقدم "هشام" ببصره إليها، «اهدئي يا سوسن»، قال، «نحن لا نفهم شيئًا مما قلته، أود لو تلتقطين أنفاسك وتهدئين قليلًا، ثم تخبريننا بهدوء ما رأيت».

نهنهت "سوسن" ومسحت بيدها اليمنى الدموع عن عينيها العسليتين وحاولت أن تتمالك نفسها بما بقي لديها من قوة، وبدأت تحكي كل ما رأته، "شادي" وهو يُضاجعها بسادية، قيامه بشنق نفسه بينما هي في براثن غيبوبتها لا تعرف إن كان ما رأته واقعًا أم خيالًا،

حكت عن صاحب الوجه المُشوه الذي حملها ونقلــها للمستــشفى، حكت عن مقتل جميع العاهرات اللاتي يعملن لدى "مديحة سُــلطان" وعن مقتل "مديحة سُلطان" ذاتها، حكت كل ما رأته تقريبًا، ولكنها ما زالت لا تفهم في الأمر شيئًا.

أثار ما قالته ريبة المُقدم "هشام" فما روته عن رؤيتها "شادي" وهو يقوم بشنق نفسه يختلف تمامًا عما قفز إلى رأسه من استنتاجات عــن وجود قاتل متسلسل يتوهم تكليفه بمهمة من السماء وهو ما تُــشير إليه كل الأدلة، كما تتعارض كلماتها مع كل جــرائم القتــل الــتي حدثت في الأيام السابقة بذات التفاصيل، فلو كان "شادي" هو من قام بقتل نفسه، فما تفسير باقي الجرائم؟!، قلبت كلماتها أفكار المُقدم "هشام" رأسًا على عقب، فما كاد يصل إلى حل اللغز الذي أنهــك تفكيره، حتى أتت هي لتُخبره أن كل ما توصل إليه أو اســتنتجه لا يمس الحقيقة في شيء.

انتقل المُقدم "هشام" مع قوة من رجال الشرطة إلى البناية الــتي تقطن بها "مديحة سُلطان" للتأكد مما روته "سوسن" عن مقتل جميع من كانوا في المكان.

هاله منظر الجثث المُعلقة من رقبتها، وكأنــه في عــصر محــاكم التفتيش وشنق الساحرات، أو كأنه مشهد شنق جمــاعي للقراصــنة الذين كانوا ينهبون سُفن التجار، كان المشهد رهيبًا جدًا وقد امــتلأ

المكان برجال المعمل الجنائي الذين راحوا يفتشون كل شيء ويأخذون العينات من كل شيء.

كل هذا الكم من الجثث المُعلقة كان دليلًا ساطعًا أن الأمر أكبر من مجرد قاتل مُتسلسل، فما كان لرجل واحد مهما تبلغ قوته أن يقوم بشنق سبعٍ من النساء وخمسة رجال كانوا في المكان، ربما هم زبائن جاؤوا لينعموا بقضاء ليلة مع إحدى العاهرات، فإذا بها تتحول إلى ليلة مع "عزرائيل"، أحد الرجال المشنوقين كان "إبراهيم الغزاز" الحارس الشخصي لمديحة سلطان، وهو رجل ضخم البنية يصعب على رجل آخر أن يقوم بتعليقه من رقبته في حبل إلى سقف الغرفة بهذه الطريقة، يبدو الأمر وكأنه كابوس يحيا "هشام" داخله مُنتظرًا صحوٍ لا يجيء.

***

الظلام القاتم الذي يُشعرك بأنك داخل إحدى روايات الرعب القوطي، ضوء القمر الشاحب الذي يظهر على استحياء، نعيق البوم يُضفي جوًّا مُقبضًا، بينما هو يسير وحده حافي القدمين على صخور حادة تجرح قدميه وتُدميهُما، يبحث عن سلاحه فلا يجده، يعلم جيدًا أنه بلا حماية وأن الموت يدنو منه بخطواتٍ ثابتة، هو لا يخشى الموت، فما يُخيفه أكثر من الموت هو الخوف من الخوف ذاته، أن تجد نفسك وحيدًا في مكانٍ مُقبضٍ كهذا تجهل معالمه، بلا حماية أو سلاح تستطيع به أن تُدافع عن نفسك، بلا مأوى، بلا مهرب.

يسير في الطريق الوعر بخطواتٍ مُرتجفة، يتلفت يمينًا ويسارًا مُنتظرًا تلك اللحظة التي سوف يهجم عليه المجهول ليُنهي عذاباته.

وعلى نحوٍ لا يتوقعه سمع صوت الصرخات المذعورة ورأى عن يمينه أشخاصًا يسقطون من علٍ، بينما تلتف أنشوطه المشنقة حول رقبة كل واحد منهم، فيسمع صوت تحطُم فقرات العُنق، ورأى جثثهم همد بعدما فارقها صخب الحياة، نظر عن يساره فرأى الشيء ذاته يحدث، السقوط، تحطم فقرات العنق، الجثث التي تتدلى من المشانق، ركضَ كما لم يركض من قبل ولا يعتقد أن يركض من بعد!

أمامه رأى ذلك الشخص المهيب يمنع عنه طريق الفرار، ضوء القمر الشاحب يظهر من خلفه، فيمنع عنه رؤية ملامحه.

يقترب منه مُحاولًا التدقيق أكثر في ملامح وجهه، بينما لا يتحرك الشخص قيد أنملة وكأنه ينتظره، يقترب أكثر فتبدأ ملامحه في الظهور، نصف وجه محترق، نصف وجه مُشوه، إنه هو.. إنه "عشماوي!".

انتفض المُقدم "هشام" من نومه مذعورًا وهو يلفظ الاسم الرهيب الذي حيره كثيرًا، صحت زوجته الدكتورة "إيمان" من نومها على صوته، «ماذا بك يا هشام؟»، سألته مُستفسرة، «كابوسٌ آخر.. لا تقلقي»، أجابها وهو ينهض من فراشه، سار إلى الحمام وغسل وجهه، ثم ذهب إلى المطبخ ليُعد لنفسه كوبًا من القهوة، أتت زوجته ووقفت

خلفه، «لا تُرهق بدنك وذهنك في التفكير كثير في الأمر يا هـــشام، استرخِ وحاول أن تُفكر بهدوء»، قالت فاستدار لها بجسده ونظـــر في عينيها يُحاول طمأنتها بنظراته الدافئة، «لا تقلقي يا عزيزتي، اخلدي للنوم الآن، أنا بخير»، قال مُحاولًا أن يبث الطمأنينة في قلبها، «ولكن يا هشام...»، قاطعها قبل أن تُكمل جملتها، «لا تقلقي يـــا إيمـــان، اخلدي للنوم، فأنا أريدُ أن أفكر مع نفسي قليلًا»، قـــال بلهجتـــه الحازمة، فما كان منها سوى أن لثمت خده وربتت علـــى كتفـــه، «سأفعل يا عزيزي ولكن عدنيّ أولًا ألا تُرهق عقلك في التفكير أكثر مما يجب»، قالت فلم تحصل منه على رد، استدارت عائدةً إلى فراشها وتركته لحاله يفعل ما يُريد، كانت تعلم جيدًا كم أن زوجها رجُـــل ذكي لم يعتد الفشل في حياته، ولا يقبل أن يفشل في حل لُغزٍ كهـــذا مهما تبلغ صعوبة الأمر.

جلس "هشام" على مقعده في شرفة المترل، المكان المُحبب إلى قلبه والذي بات يقضي فيه أوقاتًا طويلة يُفكرُ في حل القضية الـــصعبة، أشعل لفافة تبغ ورشف رشفة من كوب القهوة الساخن الذي أعده لنفسه، وراح يعتصر عقله مُحاولًا إيجاد تلك الثغرة اللعينة التي تُمكنه من الولوج إلى كل جوانب القضية، وتُمكنه من إيجاد الحل لهذا اللغز.

«عشماوي..عشماوي..»، راح المُقدم "هشام" يُردد الاسم على شفتيه مُتذكرًا تفاصيل الكابوس الرهيب الذي طارده خلال نومـــه،

الوجه نصف المُحترق الذي خلقه عقله بُناءً على ما وصفته له "سوسن أستك" ليُطارده في منامه، تُرى هل هو وجه القاتل الذي يبحث عنه فعلًا؟ أم أنها – سوسن – كانت تهذي فحسب وانتقلت عدوى هذيانها له؟!

«عشماوي.. الموت شنقًا.. عشماوي.. كيف لم ألحظ هذا من قبل؟!»، قال المُقدم "هشام" في نفسه وقد سطعت في رأسه فكرة ما، فنهض من مقعده مُسرعًا واتجه إلى غرفة نومه ليقوم بتبديل ملابسه.

***

14

عبثًا حاولتُ أن أُقنع نفسي بأنني لم أرتكب تلك الجريمة حقًا، فطاردتني صورة "فريد" المُعلق من رقبته بحبل أفكاره وإلحاده المقيتين لتُثبت لي أنني فعلتها حقًا ولسوف أفعلها من جديد! كثيرًا ما راودني عقلي بأفكار لا حصر لها، وجادلني بأن "فريد" لم يكن يستحق الموت، فجادلته بأنه لم يكن يستحق الحياة أيضًا!

حاربتني أفكار التوقف عما انتويت القيام به، فنهرهما بما يُمكنني تغييره من سلوكيات المُجتمع الخاطئة ببث الخوف من العقاب القاسي داخل قلوب الناس، أحيانًا يُمكن للخوف أن يُقنع الأشخاص بالتوقف عن أفعالهم المُشينة وسلوكياتهم الخاطئة وأفكارهم الهدامة التي لم تستطع ضمائرهم إثناءهم عن فعلها.

كلهم كانوا خُطاةً ومجرمين استحقوا الموت، هكذا أقنعتُ ذاتي وهكذا كُنتُ أراهم حقًّا، كلهم ضلوا السبيل للهدف الحقيقي من وجودهم، وتحولت الوسائل التي قد تُساعدهم لبلوغ الهدف إلى أهداف في حد ذاتها، فاستشعر الشر خواء قلوبهم، ووجد لنفسه مُستقرًّا فيها، وكان السبيل الوحيد لقتل الشر الساكن فيهم هو قتلهم هم أنفسهم، لعل هناك من يتعظ خوفًا من ذات المصير.

الموت لا يُحكم قبضته إلا على الأموات سلفًا، فالموت لا يأتي إلا حينما نستدعيه، هكذا كُنتُ أرى كُل من وهبتهم الموت بعقاب "عشماوي" هم من يستدعون الموت بسماحهم له أن يفرض سطوته على أرواحهم، فعاشوا أمواتًا لا تُحركهم سوى غرائزهم وأطماعهم والملذات اللحظية للحياة الفانية.

لم تكن أفكار "فريد منصور" الجامحة وإلحاده هما ما جعلاني أُصدر عليه حُكمي بالإعدام، بل كانت أفعاله الوضيعة التي صارحني بها، والتي فعلها نتيجة لعدم إيمانه بالحياة من بعد الموت هي من فعل، دائرة مُغلقة لا سبيل للخروج منها، فما إن وضع الرجل قدميه على بداية الطريق حتى وجد أن نقطة البداية هي ذاتها نقطة النهاية.

"وائل إمام الشريف" ذلك الثري الماجن استحق الموت لصفقاته المشبوهة التي لم ينظُر فيها لما سببه للفقراء من عناء، بل استباح لنفسه

التجارة في أحلام البشر، وما كان ليلتفت إلا لثرائه الفاحش، إلى نفوذه وسُلطته كيفَ يستغلهُما.

النقيب "شادي طلعت الجارحي" استحق الموت لأنه لم يكن يومًا مُستحقًا لسترته العسكرية وهدفها النبيل، جُلّ ما كان يبحث عنه هو ثراؤه وقسوته في مُعاملة الأبرياء، والتلذُذ بفرض سطوته على الضُعفاء، ما كان ليكون أكثر من تاجر للرقيق يلثم يدي من يدفع له ليشتري خدماته ويبطش بمن يراهم أضعف منه، لم ينتبه يومًا إلى اسم والده ومسيرته الحسنة، لم يشغله سُمعته كيف يراها الناس، كل ما كان يشغله هو مُمارسة ساديته وفرض سطوته والتباهي بسلطته والبحث عن المال.

"مديحة سُلطان" وعاهراتها استحققن الموت لما أفسدنه في الأرض، فكم من روحٍ مُعذبةٍ حجزت مكانها في جهنم بسبب إغواء عاهراتها لهم، كم من زوجة خانها زوجها بسببهن، وكم من قيمٍ فقدها المُجتمع لوجودهن فيه.

تلك هي المُهمة الموكلة ليّ من السماء، أن أكون سيف العدل المُسلط على رقاب الظالمين والمُفسدين في الأرض، كل من لا يستحق الحياة فسوف يجدني أمامه لأُحقق عدالة السماء بقتله، كما ستكون كلمة "عشماوي" هي ما تبُث الخوف في قلوب من يُحكِم الشر قبضته عليهم، لعلهم يتعظون ويرجعون عما يقترفونه من ذنوبٍ في حق البشرية وفي حق الحياة.

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العطيفي"

«الأحد الموافق 1984/10/14»

اصطحبني الدكتور "ستيفن مورفي" معه اليوم إلى معمله الضخم وعرفني إلى الكثير من العاملين معه، وبعدما أنهينا جولتنا الطويلة في المكان جلسنا في غُرفة مكتبه وراح يُعد لي كوبًا من القهوة بنفسه، ثم جلس إلى مكتبه ونظر لي بعينيه الخضراوين الذكيتين اللتين تُطلان من خلف نظارته الطبية، وسألني عما أودُّ معرفته قبل أن أُخبره بفكرتي، صمتُّ لبُرهة رُحتُ أُدققُ فيها في ملامحه شبه الشرقية وشعره الأسود المُصفف بعناية إلى الخلف، وهاتين العينين اللتين تُشعان بالذكاء، قبل أن أفتح فمي أو أنطق بأي كلمة وكأنه يعرف ما يدور بداخلي من حيرة، قال بإنجليزيته الرائعة:

- لا تقلقي من إخباري بأي شيء، أنتِ ابنة الدكتور "جمال العطيفي" وبالتأكيد تملُكين من الذكاء بقدره، نحن سنُساعدُكِ هنا بتوفير الإمكانات اللازمة لتحقيق حلمك وأنتِ ستُساعدينا بتحقيق إنجاز جديد للعلم، فلا تقلقي يا آنستي.

بثت كلماته بعض الاطمئنان في داخلي، أومأ برأسه يُشجعني على الحديث، صَمتُّ لحظة استجمعت فيها شتات فكري، وسألته:

- أُريدُ أن أعرف المزيد عن الإدراك الفائق للحواس والباراسيكولوچي.

وكأنه كان في انتظار سؤالي له، انطلق يُجيب بإنجليزيته الرائعة:

- يُعرف علم الباراسيكولوچي "Parapsychology" على أنه العِلم الذي يهتم بدراسة ظواهر ما وراء الطبيعة وعلوم ما وراء العقل والعلوم الروحية أو باختصار الخوارق، وكذلك دراسة القُدرات غير المألوفة التي يمتلكها بعض الأشخاص دون غيرهم، كما يعني بتفاعُلات الإحساس والحركة دون الارتباط بقوة أو آلية فيزيائية معروفة علميًّا، أو ما يُعرف بالإدراك الفائق للحواس "Extra-Sensory Perception" ويتم اختصار الاسم بـ "ESP"، أول من استخدم هذا المُصطلح هو الفيلسوف الألماني "ماكس ديسوار" عام 1889 ليُشير من خلاله إلى الدراسة العلمية للإدراك فوق الحسي والتحريك النفسي الروحي والظواهر والقُدرات الأُخرى

ذات الصلة، وكان أول من قام بمنهجة هذا العلم ووضـع أُسُـس تجارب مُعينة للقيام بها أثناء دراسة الحالات هو العـالِم الأمريكـي دكتور "چـوزيف بانكس راين" "Rhine" في جامعـة "دوك" في ساوث كارولينا بالولايات المُتحدة الأمريكية، قبل أن يستقيل مـن الجامعة ويُنشئ أول مركز يُعنى بدراسة تلك الظواهر سماه "مؤسـسة بحوث طبيعة الإنسان" عام 1965، أي بعد ولادتك بعامين أو ثلاثة تقريبًا، وهو ما يُشعرُني بأنكِ وجدتِ في هذا العالم لهدفٍ ما، أشـعُر بأملٍ شديد في الوصول إلى شيء ما بوجودك معنا.

أنهى كلامه وقبل أن أسأله سؤالي التالي سمعنا طرقات خفيفة على باب الحُجرة، ثم دلف منها رجُلٌ ضخم الجثة، أبيض الوجه شـاحبه، شعره الأصفر مائل إلى الاحمرار، عيناه شديدتا الاخضرار، أشار لـه الدكتور "مورفي" بالجلوس، فجلس الرجل على المقعد المواجـه لي، فقال الدكتور "مورفي":

– تابعي أسئلتك يا آنستي، هـذا هـو الـدكتور "سـيماك شيروكوف" "Semak Shirokov" روسي الجنسية وهو صديقٌ شخصي كما أنه أهم أعضاء فريقي.

أومأتُ برأسي مُرحبة وسألت في ارتباك:

– ما الذي حاول الدكتور "بانكس راين" القيام به من خـلال مؤسسة بحوث طبيعة الإنسان؟

أشار الدكتور "مورفي" إلى الدكتور "شيروكوف" يدعوه للإجابة بدلًا منه، حتى يبث بعض الثقة في داخلي من ناحيته، فأجاب هذا الأخير بإنجليزية رديئة جدًّا:

– من خلال هذه المؤسسة حاول د.راين تطبيق الأساليب العلمية على تجاربه، فاستعان ومن بعده تلاميذه بالعديد من قوانين الإحصاء والاحتمالات ويرمز لها بالرمز **P** واستعان بقوانين ميكانيكا الكم أيضًا، كما استخدم الدوائر التليفزيونية المُغلقة وطَور أجهزة لقياس الطاقة النفسية، كل هذا لُمحاولة صياغة نتائج موثقة، وكانت أول وأهم تجاربه تلك التي كان يُجريها باستخدام أوراق اللعب أو ما يُسمى ببطاقات زينر "**Zener**" وهي مجموعة كروت خاصة مؤلفة من 22 كارتًا، كُلٌّ منها يحوي رسمًا بسيطًا مُعينًا كالنجمة أو الدائرة أو الصليب أو الصاعقة مثلًا، وفي كل مرة كان على الشخص موضوع الاختبار تخمين الرسم الموجود في الكارت الذي يُخرجه د.راين، من دون أن يراه الشخص بالطبع، ولو استطاع الشخص تخمين 6 كروت فذلك يعني تمتعه بالإدراك الفائق للحواس، ولمزيد من التأكيد كان د.راين يُعيد التجربة ثلاث مرات ثم يأخذ مُتوسط النتائج، وأظهرت بعض التجارب التي أُجريت في هذا المجال أن 20% من النتائج كانت في صالح الباراسيكولوچي، وكان هذا داحضًا لكل من يدعي بأن المصادفة هي التي تلعب دورها في ذلك.

تابع الدكتور "مورفي" كلام الدكتور "شيروكوف" قائلًا:

- باختصار علم الباراسيكولوچي هو علم الركض خلف علامات الاستفهام، فهو يدرس الحياة من بعد الموت، وكذلك يهتم بالظواهر التي تُرافق تجربة الدنو أو الاقتراب من الموت "NDE"[1]، وكذلك يُعبر عن البيوت المسكونة بالأشباح والأرواح الشريرة، ويبحث عن إخراج الأرواح الشريرة من أجساد البشر "Exorcism" ومن الأماكن التي يقطنون بها، باختصار شديد إن علم الباراسيكولوچي يهتم بدراسة كل ما هو غامض ويبحث عن علامات الاستفهام الموجودة في العلوم المُختلفة ويُحاول الإجابة عن التساؤلات حولها.

سألتهُما وقد بدا لي أنهُما يملُكان كل ما أحتاجه من معلومات:

- ماذا عن الإدراك الفائق للحواس؟

أجاب الدكتور "شيروكوف" قائلًا:

- الإدراك الفائق للحواس هو قُدرة الشخص على إدراك الموجودات من دون استخدامه لحواسه، في حقيقة الأمر يُقال إن جميع البشر كانوا يمتلكون حواسًا غير عادية وكانوا يستخدمونها، لكن مع مرور الوقت بدأت هذه الحواس غير العادية بالانقراض، ونتيجة

---

[1] اختصار Near Death Experience أو خبرة الاقتراب من الموت.

لذلك فقد اختفت في مُعظم البشر، لكن بقيت هذه القُدرات غـير الطبيعية مع فئة قليلة وغريبة من البشر.

تابع الدكتور "مورفي" قائلًا:

– هُناك العديد من هذه الحواس ولعل من أشهرها التخاطُر وقراءة الأفكار "Telepathy" والقدرة على قراءة العواطف "Telempathy" وتحريك المواد عن بُعد "Psychokinesis" والتنبؤ بالمستقبل "Precognition" ورؤية أشياءً ليست أمامك "Clairvoyance" والقدرة على سماع الأصوات البعيدة "Clairaudience" والقُدرة على الوجُود في مكانين في وقت واحد "Bilocation" والقُدرة على إشعال الحرائق بشكل ذهني "Pyrokinesis" والقُدرة على إحضار الماديات إليك "Apportation" والإدراك الاسترجاعي وهو القُدرة على معرفة أحداث الماضي "Retrocognition" والإحساس بمن لمس الشيء "Psychometry" والانتقال الآني للمادة "Teleportation" والاستشعار وهو القُدرة على اكتساب معلومات عن حادثة بعيدة أو جسم بعيد "Clairsentience".

أنهى حديثه عن الإدراك الفائق للحواس، فسألته:

– هل لديكُم هُنا أشخاصٌ يتمتعون بهذه القُدرات؟

نظر الدكتور "مورفي" إلى الدكتور "شيروكوف" نظرة ذات معنى، ثم قال:

- نعم.. لدينا هُنا مجموعة كبيرة منهم ونعمل على دراستهم وإجراء بعض التجارب عليهم.. والآن يا آنستي هلا سمحتِ بأن تُخبريني ما الفكرة التي تسعين للبحث عنها؟

شعرتُ ببعض الارتباك، ولكني أخذتُ شهيقًا عميقًا وحاولت التماسك، ثم قُلت:

- فكرتي ببساطة شديدة هي القيام بما يُحاول العلم فعله دائمًا وهو استخلاص الدواء من الداء نفسه، ماذا لو أمكننا استخلاص هذه القُدرات من الأشخاص الذين يتمتعون بها وقُمنا بحقنها في أشخاص طبيعيين، الصورة الأخيرة لدينا سوف تكون الإنسان السوبرمان.. لا أعلم حقًا ما الطريقة التي يُمكنني بها فعل الأمر؟ ولكني أعملُ على ذلك، لحظتها سوف يُمكننا السمو بالجنس البشري فوق حدود الماديات، ولسوف نتمكن من معرفة الماضي بصورة صحيحة بعيدًا عن أخطاء المؤرخين ونُشكلُ معًا مُستقبلًا أفضل.

كان لكلماتي وقعٌ غريبٌ على كليهما، امتلأت أعيُنهما بالدهشة والإعجاب، وعرفتُ لحظتها أنني قد انضممتُ منذ هذه اللحظة إلى فريق عمل الدكتور "مورفي".. يبدو المُستقبل باسمًا أمامي فاتحًا ذراعيه ليحتضنني، وها هي أولى خطواتي الفعلية لتحقيق حلمي قد تحققت.

15

بخطوات عسكرية ثابتة اعتادها قدماه، سار المُقــدم "هــشام" في ردهة مصلحة السجون يكاد لا يرى طريقه مــن فــرط الانفعــال والتوتر، لا يعرف سببًا لما أراده ولكنه كان يرغب فيه بشدة فقــرر تنفيذه، تعلم منذ عمل في المباحث أن يتبع حدسه، وحدســه يخــبره بضرورة لقائه مع عشماوي مصر، القاتل الشرعي الوحيد[1]، الرجل الذي قام بتنفيذ حكم الإعدام في مُجرمين كُثر ممكن قادهم طريقهم العاثر الشرير إلى حبل المشنقة.

في مكتب مدير مصلحة السجون التقى المُقدم "هشام" بالرجــل المهيب عشماوي مصر، تركهما مدير مصلحة السجون معًــا كمــا

[1] عشماوي مصر الذي قرأت عنه وقت كتابة الرواية هو حسين قرني حسين الفقي، ولد في محافظة الجيزة وانتقلت أسرته إلى محافظ الغربية لتستقر هناك، لديه 7 أولاد و13 حفيدًا وتزوج 6 مرات منها خمس بعدما بات مُساعد عشماوي.

طلب المُقدم "هشام" الذي راح ينظر إلى ذلك القاتل الشرعي عشماوي مصر نظرات فيها من الإعجاب بقدر ما فيها من المهابة والتقدير.

صافح المُقدم "هشام" عم "حسين" عشماوي مصر فشعر بقوة يده الفولاذية، نظر إلى ملامحه فرأى ابتسامته المُشرقة التي تعكس ما فيه من طيبة، قوي البنية كان، مُشرق الوجه، طيب القلب، شارباه كثين يُمكنان النسر من الوقوف عليهما من دون أن يهتز، «كيف حالك يا عم حسين؟»، سأل المُقدم "هشام"، «بخير يا ولدي»، أجاب عم "حسين" بابتسامته الصافية الودودة، «أعرفك أولًا بنفسي، أنا المُقدم هشام العاصي من المباحث، جئتُ إليك بصورة ودية لاعتقادي أن حواري معك سيفيدني في حل لغز إحدى القضايا»، قال فابتسم عم "حسين" وأومأ برأسه مُتفهمًا، «وأنا في خدمة الحق يا ولدي».

أمسك المُقدم "هشام" قلمه ودفتر ملاحظاته الصغير، ثم أشعل لفافة تبغ سحب منها نفسًا عميقًا، «أخبرني أولًا يا عم حسين كيف بدأت علاقتك بمهنة عشماوي؟ وكيف تم اختيارك؟»[1]، قال هذا الأخير وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء، «بدأت حكايتي مع الإعدام مُنذُ التحقت بالشرطة، وقتها كُنتُ أحلم أن أصبح مساعد

---

[1] حوار المُقدم هشام مع عشماوي مصر مأخوذ عن حوار لعم حسين في إحدى المجلات، عذرًا لا يمكنني تذكر اسم المجلة أو المُحرر.

عشماوي، وأُجهز نفسي لهذا المنصب/ وأهتم بجسدي الرياضي، وأنتظر أول فرصة للترشُح، وكثيرًا ما كُنتُ أتخيل شكلي وأنا أرتدي بذلتي الغامقة وأقتص من الجواسيس والقتلة. واستجاب الله لدعائي ورشحني للعمل مُساعد عشماوي مصر عم "حلمي سُلطان" وقتها رقص قلبي فرحًا على الرغم من أنه كان يُنافسني في ذلك الوقت زميلان، إلا أن بنيتي القوية ويديّ الفولاذيتين ورزانتي وثقافتي، كلها أمور ساعدتني، ونجحت عام "**1990**" وكانت البداية أن أحصل على الخبرة العملية من أستاذي "حلمي" عشماوي مصر السابق وزدتُ عليه أن حاولت أن أكتسب المعرفة العلمية وساعدتني مصلحة السجون ووزارة الداخلية في ذلك، وتم تزويدي بكتاب يشرح كيفية الإعدام في جميع دول العالم ومميزات كل طريقة وعيوبها، واكتشفتُ أن الشنق هو أفضل وسيلة للمحكوم عليه لأنه يحافظ على جسده سليمًا ويضمن الوفاة تمامًا، وكما تعلم فإن هناك فرقًا بين الخنق "**Strangulation**" والشنق "**Hanging**" فالأول هو أن تكتم أنفاس شخص سواء أكان بمنع دخول الهواء في رئتيه أو بخنقه في رقبته لمنع وصول الهواء أيضًا إلى رئتيه، أما الشنق فهو أن يتم كسر الفقرات العنقية وقطع الحبل الشوكي ما يتسبب في حدوث الموت السريع للمحكوم عليه، على الرغم من أن قلبه يستمر في الخفقان لثوانٍ عدة تصل إلى دقائق، ولاحظتُ في بداية عملي أن حبل المشنقة كان يلتف حول العنق على شكل ربطة عنق، ما يُصعب عملية الشنق

على المحكوم عليه، لذلك قُمتُ بتعديل عملية الشنق لتكون العُقدة بجانب الرقبة ويتم كسر الفقرات العنقية بسهولة، كي لا تحدث أي آثار لحبل المشنقة في الرقبة»، قال عم "حسين" فقام المُقدم "هشام" بتدوين بعض المُلاحظات في دفتر مُلاحظاته ووأد سيجارته التي انتهت في منفضة سجائر على المكتب بعدما سحب منها نفسًا أخيرًا، «ماذا حدث في أول إعدام شاركت فيه يا عم حسين؟»، سأل المُقدم "هشام".

«كُنتُ وقتها مُساعد عشماوي»، قال عم "حسين" وهو يلوح بذراعيه موضحًا، «وكان سيتم تنفيذ الحكم على شاب وفتاة كانا قد ارتكبا جريمة قتل زوج الفتاة لسرقة أمواله، وكانا في حالة ذهول تام، وطلبا رؤية بعضهما بعضًا، ولكن التعليمات تقضي بعدم التقاء أي مُتهمين في قضية قبل التنفيذ، وكان أحد المُتهمين قد زاد وزنه جدًّا، وعلى الرغم من أننا حرصنا عند إعدامه على إطالة الحبل لإلا أنه قطع جزءًا من رقبته وتناثر الدم في بئر الإعدام، وقتها طلب عشماوي مني أن أهبط داخل بئر الإعدام لأحمل الجثمان وأخرج به، وكأنه يريد أن يختبر قوة أعصابي، وبالفعل قُمتُ بذلك من دون أن يهتز لي جفن، لكن بعد عودتي إلى منزلي وإغلاقي باب حجرتي أصابني اكتئاب شديد، وظللتُ مدة يومين أو ثلاثة من دون أن أتناول الطعام، ولم تنته تلك الحالة إلا بعد أن شاركت في الإعدام مرة أخرى»، أنهى عم "حسين" كلماته وقد بدأ التجهم يغزو ملامحه لتذكره تلك اللحظات القاسية وهو ما تعجب منه المُقدم "هشام" في رجلٍ اعتاد الأمر.

«كيف تستعد لليلة الإعدام؟ ومتى تذهب إلى السجن؟ وماذا تفعل هناك؟»، سأل المُقدم "هشام" مُقاطعًا تفكير عم "حسين" فتنحنح هذا الأخير، «أذهبُ فجرًا قبل التنفيذ بيوم وأقومُ بتجربة الطبلية وأحرص ألا يصدر منها صوت، على الرغم من أن فتحها يُحدثُ صوتًا رهيبًا كأنك تفتح طاقة الموت، ويُساعدني في ذلك حرص مصلحة السجون على أن تكون غرفة الإعدام في نهاية السجن، كي لا ينتبه المحكوم عليهم بالإعدام ويُصابوا بالذُّعر، وبمجرد أن أطمئن إلى أن مُعداتي جاهزة أذهب لأعود في ليلة الإعدام، بعد أن أتناول العشاء وأشرب قهوتي في أحد المقاهي بالقرب من بوابة السجن وأقوم فور دخوله بإعداد حاجاتي وانتظار إحضار السجين وغالبًا ما يتم ذلك بين الساعتين الثانية والثالثة فجرًا، أما المجرمون الخطرون فيتم التحفظ عليهم مُكبلين بالقيود الحديدية وتحت حراسة مُشددة، قبل يوم كامل من الإعدام، وقبل تنفيذ الإعدام أُعاين وزن المحكوم عليه وطوله بنظري، من دون أن يشعر بي، كي أتمكن من تحديد طول الحبل لأن عملية الإعدام تعتمد على الجاذبية الأرضية وجسم المحكوم عليه، ولا أعتمد على التقارير الطبية التي يعدها السجن عن المحكوم عليه بصورة شبه أسبوعية لأن وزن المُتهم يتغير يومًا بعد يوم، خصوصًا أنه يتمتع بوجبات خاصة مُتميزة عن باقي السُّجناء»، قال عم "حسين" وكان المُقدم "هشام" مشغولًا بتدوين الملاحظات وقال من دون أن يلتفت إليه، «متى يُصبح المُتهم في عُهدتك؟».

«بمجرد أن تقترب عقارب الساعة من موعد التنفيذ ويسير المُتهم وهو يكاد يُحمَل حملًا، حتى يصل إلى مكان أعضاء اللجنة التي ستقرأ عليه الحكم، فأقوم وقتها بتسلمه أنا ومُساعدي، وبعد قراءة الحكم أقوم بتكبيل ساعديه والسير به حتى طبلية الإعدام، وطوال ذلك أطلب منه أن يُكرر نطق الشهادة حتى وأنا أضع الكيس الأسود على رأسه، والهدف الأساسي من وضع الكيس الأسود على رأس المُتهم هو الحفاظ على ملامحه حتى بعد وفاته، فالمحكوم عليه تتغير ملامح وجهه أثناء التنفيذ، وتجحظ عيناه وقد تتدليان»، قال عم "حسين".

نظر المُقدم "هشام" في عينيه القويتين، «هل هناك مُتهمون لا يهابون الموت ويتماسكون أمام حبل المشنقة؟»، سأل الأول فأومأ الأخير برأسه نفيًا، «صدمة الموت رهيبة لا يتحملها أعتى المُجرمين»، دَوَّنَ المُقدم "هشام"إجابته في دفتر المُلاحظات، «هل يدور بينك وبين المحكوم عليهم أي حوار أثناء التنفيذ؟ وماذا تكون آخر كلماتهم؟»، سأل هذا الأخير

«بالطبع، فالمُتهم عندما يرى الموت بعينيه يعترف غالبًا بجريمته حتى لو كان يُنكر قبل إعدامه بدقائق، وغالبًا ما يطلُب مني السرعة في عملي كي لا يتعذب»، قال عم "حسين" فقام المُقدم "هشام" بتدوين مُلاحظاته وأشعل لنفسه لفافة تبغٍ أخرى، «هل يوجد فارق بين إعدام الرجال وإعدام النساء؟»، سأل.

«بالطبع»، قال عم "حسين" وهو يومئ برأسه ويُلوح بذراعيـــه، «هُناك فارق كبير، فالرجال يُصابون بالذهول كُلما اقتربوا من حبل المشنقة، ولكنهم لا يبكون أو يستعطفون، بينما النـــساء يـــصرُخنَ ويولولنَ ويبكين بحُرقة ويستعطفن، ولا بد أن أعدم الواحدة منـــهن بحنية وأخافُ عليها، فعضلات رقبة الرجل أقوى منـــها في الأُنثـــى، إضافةً إلى أن جلد النساء أنعم من الرجال، بالتالي يُمكن أن يتأثر جلد الإناث بسرعة من حبل المشنقة، لهذا يجب إطالة الحبل، وغالبًا ما يتم إعدام الإناث وهُنَّ جالسات ولا نترك المُتهمة إلا ثلاث أو أربع دقائق كي لا ينفصل الرأس عن الجسد».

«ماذا عن المُتهمين في قضايا الإرهاب؟»، سأل المُقدم "هـــشام"، «هؤلاء لهم وضع آخر»، أجاب عم "حسين"، «فغالبًا ما يكونـــون مُتماسكين وفرحين وكأنهم يجرون نحو غرفـــة الإعـــدام مـــدفوعين بمُعتقداتهم ويقتنعون بأنهم لا يفصلهم عن الجنة والحور العين ســـوى حبل المشنقة، كما أنهم يُقاطعون أعضاء لجنة التنفيذ أثناء تلاوة الحكم ويرفضون سماعه أو الاعتراف بما جاءَ فيه».

صمت المُقدم "هشام" دقائق قليلة قبل أن يوجه سؤاله التالي قـــام فيها بتدوين بعض المُلاحظات في دفتره، «هل سمعت عن ذلك القاتل المُتسلسل الذي ظهر حديثًا في مصر مُتخذًا لنفسه لقب عشماوي؟»، سأل وبدا فضوله شديدًا لمعرفة الإجابة، «فقط ما جاء في الصُّحف»،

أجاب عم "حسين"، «إنه قاتل يقوم بقتل ضحاياه شنقًا ويقوم بوضع لافتة على صدر كل ضحية بها كلمة عشماوي، ولكن دعني أؤكد لك يا سيادة المُقدم أن طريقته في قتل ضحاياه تختلف كثيرًا عن الطريقة التي نستخدمها نحن في تنفيذ حكم الإعدام في المُجرمين، فنوع الحبال الذي استخدمه القاتل في قتل ضحاياه مُختلف عما نستخدمه في الإعدام، فهو يستخدم حبلًا مجدولًا عاديًا، بينما حبل المشنقة مصنوع من الحرير بنسبة 80%، أما النسبة الباقية فهي من الكتان، وكان في الماضي يتم استيراده من إنجلترا وتصل تكلفته إلى 800 دولار تقريبًا، ولكن تم مُؤخرًا تصنيعه في إحدى شركات القطاع العام في مصر، وتصل تكلفة الحبل الواحد 800 جنيه، وهو لا يكفي إلا لإعدام ثلاثة أشخاص؛ لأنه بسبب الثقل تقل خشونته وصلابته ويتمدد فيقل سُمكه، والحبل ينتهي بدائرة تم تبطينها بالجلد وفيها حلقة من الحديد، وتم تبطين الدائرة والحلقة بالجلد كي لا يجرح الحبل جسد المحكوم عليه، ويتم التحكم في طول الحبل عن طريق سلسلة حديدية مثبتة في المشنقة، ولا بد أن أحُضر معي حبلًا إضافيًا لاستخدامه في حالة حدوث أي طارئ، وربما أُحضر معي عددًا من الحبال إذا كان سيتم إعدام أكثر من شخص في اليوم نفسه، ويتضمن باقي الأدوات التي أستخدمها عددًا من السيور الجلدية، إذ يتم ربط الكتفين والساعدين والهدف من ذلك أن تبرز الرقبة تمامًا مهما يحاول الشخص إخفاءها، كما يتم ربط القدمين مُلتصقتين كي لا تنفرجا

عند سقوط الجسد في بئر الإعدام وتُجرح الساق أو القدم في بـــابي الطبلية أو مزاليج الحديد التي تفتحهُما».

«هل يُمكنك أن تُريني غُرفة الإعدام يا عم حـــسين؟!»، ســـأل المُقدم "هشام" وهو ينهض من مقعده لإتمام مُهمته التي جاء من أجلها.

***

غُرفة الإعدام[1] الموجودة داخل سجن الاستئناف بمنطقة الـــدرب الأحمر خلف مُديرية أمن القاهرة هو المكان الوحيد الذي لا يرغـــب أحد في زيارته على الإطلاق، لأن دخوله لا يعـــني ســـوى المـــوت، يتطلب الوصول إلى الغرفة السير في طرقة طويلة ومنـــها إلى بـــاب حديدي كبير به حوش واسع، هي حُجرة متطرفة إلى اليمين لا تتميز عن باقي حجرات السجن سوى بالكلمة التي كُتبت عليها، "غرفـــة الإعدام"، والكلمة كُتبت باللون الأحمر لون الدم، وكأنها تُشير إلى أن هذه الغرفة لا تعرف سوى اللون الأحمر، فالسجين يرتديه منذ اللحظة التي يحكم عليه فيها بالإعدام.

الحُجرة بها مدخل رئيسي، ثم عتبة صغيرة يعبُر منها المحكوم عليه من الدُّنيا إلى الآخرة، هي غرفة غير مُضاءة بشكل جيـــد، بـــسيطة للغاية، توجد بها فتحتان صغيرتان للتهوية، فهي لا تحتوي إلا علـــى

[1] وصف غُرفة الإعدام كما ورد في عدد من جريدة المصري اليوم.

المشنقة وأسياخ الحديد التي يُغلق بها "عشماوي" طبلية الإعدام، ونقالة على جانب الحجرة، وخشبة الإعدام عبارة عن طبلية مكونة من ضلفتين خشبيتين تفتحان من المُنتصف إلى أسفل عن طريق فرملة يسحبها "عشماوي" للخلف، توجد تحت الطبلية بئر عُمقها أربعة أمتار.

بعد تثبيت المُتهم وربطه بالجنازير من يديه وقدميه، ثم جنزير حديدي ينتهي بصامولة حديدية يتم فتحها لتركيب حبل المشنقة فيها يقوم "عشماوي" بسحب ذراع الطبلية بعد أخذ إشارة التنفيذ من رئيس المصلحة أو أحد مُمثلي القضاء، فتُفتح الضلفتان ويسقط جزء من جسد المُتهم في البئر بحيث لا تلامس قدماه أرض البئر، وتُحدث هذه العملية كسرًا في فقرات العُنُق وهتُكًا في النُّخاع الشوكي، فيموت على إثرها المحكوم عليه خلال دقيقة أو دقيقتين على الأكثر، ويُترك بعدها لمُدة نصف ساعة في الحبل حتى يتجلط الدم الذي ينزف منه عقب عملية الشنق.

***

16

أجمل ما يُمكنك أن تراه هي النتيجة الناجحة لعملك مُتجـسدةً أمام ناظريك، تلك المرأة التي بطش بها النقيب "شادي" قبل أن ينال عقابه العادل على ما اقترفه، والتي كانت تُقدم جسدها لمن يُمكنه أن يدفع، رأيتها اليوم تعمل في إحدى المحال التجارية وقد تبدل سلوكها وأُزيلت عنها أصباغ الحرام التي كانت تتزين بها، أسعدني تبدُل حالها كثيرًا، وشعرتُ بأنني أسيرُ على الطريق الصحيح لتعديل مسار الكون وسلوكيات المُجتمع التي هَوت إلى بئر الشر السحيقة، على الأقـل هُناك جدوى لما أفعله.

ما رأتني هي ولكن أنا الذي رأيتُها، كُنتُ مُغتبطًا اليوم كلـه، لم يُعكر صفوي سوى قدوم "هايدي" ابنة الوزير الساذجة المغـرورة، ترجلت من سيارتها الفخمة التي تكفي لإطعام المئات مـن أطفـال

الشوارع، وسارت بخطوات مُستقيمة غَنجة نحو باب المكتبة، تُشعل بين أصابعها لفافة تبغ رفيعة بُنية اللون، «أنت يا...»، قالت وهي تنفُث سُم تعاليها مع دخان سيجارها، «أيًّا كان اسمك.. أُريدُ آخر مجلات الموضة»، حدجتها بنظرة نارية مُحتقرة، في مقدوري أن أتعاملُ معها بطريقة أخرى ولكن أنا ما كُنتُ يومًا ظالمًا، فلا أعتقدُ أنها تستحق ما كُنت لأفعله بها لُمجرد تعاليها وغرورها ولهجتها السمجة الوقحة.

أحضرتُ لها ما أرادت، فضغطت أحد أزرار جهاز التحكم الصغير بين يدها فأضاءت سيارها، أشارت لي بسبابتها أن أضع المجلات على المقعد الخلفي من السيارة، هل تترةُ عن إمساكها بمجلاها لتضعها بنفسها في المكان الذي تُحب؟! أم أنها ترى في نفسها أنها فوق الناس وأن الجميع مُسخرون لخدمتها؟! وضعتُ المجلات في المكان الذي أشارت إليه من قبيل الذوق فقط، فنقدتني ثمن ما اشترت، وانطلقت إلى سيارها من دون أن تنتظر أن تأخُذ باقي ما دفعت، أدارت مُحرك سيارها وانطلقت مُسرعة، كُنتُ أمسك بين يدي بباقي الحساب وأنا أرمق سيارها تنعطف عند نهاية الشارع غير مُبالية بلون إشارة المرور أو صياح سائقي السيارات الأخرى الغاضبين، جزرتُ على أسناني بحنق، «شيء لله»، قالها الطفل الصغير الذي لم أنتبه لقدومه فأعطيته باقي حسابها وانطلق عائدًا إلى حيثُ لا أدري، بينما عُدتُ أنا إلى داخل المكتبة يقتلني الغيظ.

تبًّا لتلك العقول التي تسكُن رؤوس هؤلاء البشر، مخلوقاتٍ تُرابية لا تملك من أمرها شيئًا، لا تملك متى تولد أو متى تموت، لا تملك أن تختر أسماءها، ومع ذلك ترى أنها الأذكى والأجمل والأقوى والأجدر بالحياة.

"هايدي" تلك لم تختر من يكون والدها أو ماذا يكون، وزيرًا غنيًّا له أتباعٌ كُثر، أم مُجرد عاملٍ فقير يسعى بالكاد لتوفير لقمة العيش، عقلها العليل صور لها أنها الأفضل وأن الجميع وجِـــدوا في الحيـــاة لخدمتها وتلبية رغباتها مهما تكن.

رحمَ الله أبي "عرفة" ذلك الرجل الفقير الذي اعتنى بي وأعطـــاني كل ما أمكنه إعطائي، ووهبني حُبًّا بلا مُقابل كما لو كان أبي الحقيقي أو أكثر من ذلك، وعلمني كيف أُؤمن بما يُمكنني أن أُحدثه من تغيير في العالم مهما أكن فقيرًا أو ضعيفًا.

تذكرت المظروف الذي أعطانيه قبل رحيله عن عالمنا وما أخبرني به عن وجوب عدم فتحه إلا بعد وفاته، كُنتُ قد نـــسيته في ظـــل انشغالي بتنفيذ مُهمتي بتخليص العالم مما هو فيه من فـــساد، فتحـــتُ المظروف فوجدتُ ورقتين مكتوبتين بخط يده الذي أعرفـــه جيـــدًا، قرأهما بتمهل شديد وعرفت الحقيقة الكاملة.. حقيقتي أنا!

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العطيفي"

«الإثنين الموافق 1984/11/26»

الكثير من العمل والدراسات على هؤلاء الأشخاص الذين يتمتعون بقُدرات خارقة للطبيعة، بعضهم كان مُعجبًا بذاته وتميزهُ عن باقي الناس، يحاول تطوير هذه القُدرات بما استطاع من قوة، البعض الآخر كانوا مُحيرين – بالنسبة لي على الأقل – يرون أن قُدراتهم الخارقة ليست أكثر من لعنة أصابتهم وخلقت بينهم وبين الناس العاديين حاجزًا لا يُمكنهم تخطيه، بل الأكثر من ذلك أنها جعلت منهم فئرانًا للتجارب وهو الأمر الذي كان يُزعجهم كثيرًا.

قُمتُ بعمل فحوصاتٍ كثيرة لهؤلاء الأشخاص، كما تحدثتُ مع الكثيرين منهم لفهم ما يشعرون به حيال هذه القُدرات الخارقة، كان

الدكتور "شيروكوف" قاسيًا بعض الشيء، يتعامل مع الشخص موضوع التجربة بعملية شديدة، قد تؤذي مشاعرهم في أحيانٍ كثيرة، كما كان يتعامل معي بذات العملية الجافة، فلم أستطع أن أشعُر معه بذات الانسجام الذي شعرته مع الدكتور "مورفي".

الدكتور "مورفي" برغم ما هو عليه من عملية، لكنه مرح بعض الشيء، كلامه مُحبب قريب إلى القلب مما يجعلك قادرًا على مواصلة العمل مهما تكن مُتعبًا، في الآونة الأخير بدأتُ أشعُر بشيء غريب حياله، يُحاول أن يتقرب مني بشكلٍ خاص، وكُنتُ أشعُر بذات الرغبة في التقرب منه وقضاء أكبر وقت مُمكن معًا، ربما كان السبب في ذلك هو أنني غريبة في بلادٍ غريبة وهو الشخص الوحيد الذي أعرفه هُنا.

خرجنا معًا أكثر من مرة في نُزهاتٍ قصيرة، تحدثنا كثيرًا، عرفت الكثير عن حياته كما أخبرته بالكثير عني، أشعُر ببذرة حُب تنمو في قلبي، وجوده في حياتي كان مُعينًا لي لتخطي أزمة موت والدي ورحيل والدتي إلى بولندا وعدم مُراسلتها لي، أو مُحاولة التواصل معي بأي شكل، ولكن لا يجب أن يُنسيني ما أشعُر به تجاه الدكتور "مورفي" هدفي الأساسي وحلمي في المجد الأبدي.

***

17

في مكتبه جلس المُقدم "هشام" ينفُثُ دخان لفافة التبغ الحادية عشرة ويرشف كوب القهوة الخامس، بينما يفند ما دونه من مُلاحظات في لقائه مع عم "حسين" عشماوي مصر.

الملاحظة الأولى التي كان قد دونها في دفتره هي رغبة عم "حسين" أن يُصبح عشماوي مصر ليقتص من المُجرمين والقتلة والجواسيس، وهو ما يتفق مع ما أخبرته به زوجته الدكتورة "إيمان" حول أنواع القتلة المُتسلسلين ورغبة القاتل في القصاص من المُفسدين باعتباره مُخلصًا أو نبيًا جاء إلى العالم لتنفيذ مُهمة يعتقد أنها موكلة له من السماء.

المُلاحظة الثانية كانت حول عمليات الشنق التي يقوم بها القاتل، وكيف أنها تتم بشكل خاطئ وغير كامل، فعقدة الحبل في أغلب الحالات لم تكن خلف العُنُق أو إلى جانبه بل كانت إلى جوار الذقن، مما يدل على عدم احترافية القاتل بالقتل شنقًا، كما أن الحبل الذي استخدمه القاتل في شنق ضحاياه يختلف كثيرًا عن حبل المشنقة وطريقة عمله.

المُلاحظة الثالثة كانت حول صعوبة إتمام عملية الشنق وكيف أن في حالات الإعدام الشرعي يتم تكبيل المحكوم عليه من ذراعيه وساقيه حتى يتم تنفيذ الإعدام بصورة سهلة، كما يتم ربط الكتفين كي لا يُحاول المحكوم عليه إخفاء رقبته مما يصعب عملية الشنق، وهو ما أعاد المُقدم "هشام" إلى التفكير في انتحار قتلى الحوادث السابقة، فالمحكوم عليه بالإعدام حتى بعد تكبيل ذراعيه وساقيه يحاول المقاومة والهروب من الموت بإخفاء رقبته من حبل المشنقة، فكيف استطاع القاتل إذن أن يتمكن من قتل مجموعة كبيرة من البشر من دون أن تظهر على جثثهم أي آثار لمحاولتهم مقاومته، إلا إذا كان القاتل قد قام مُسبقًا بتخديرهم، وهو ما لم يُظهره تقرير الطب الشرعي، أو أنهم هم من قتلوا أنفسهم! ولكن في هذه الحالة أيضًا تبقى اللافتة التي تحمل اسم "عشماوي" لُغزًا لا حل له!

قاطع تفكير المُقدم "هشام" دقات خفيفة على باب حجرته، ثم فتح "حامد" جُندي الحراسة الباب وأطل بملامحه الصعيدية وشاربه الكث

من فرجته، «هناك صحفية تطلب مُقابلة سيادتك يا أفنـــدم»، قالهـــا فأشار له المُقدم "هشام" بيده بما يعني «دعها تدخل».

خرج "حامد" ودلفت من الباب امرأة في العقـــد الثالـــث مـــن عمرها، فامتلأت الحجرة بعبق رائحتها الذكية، «تفضلي بالجلوس»، قال المُقدم "هشام" مُشيرًا لها بيده كي تجلس إلى المقعد المُقابـــل لـــه، أغلق دفتر مُلاحظاته وانتبه لها فهاله نظرات الذكاء التي تُطـــل مـــن عينيها العسليتين، لطالما استطاع أن يُخمن مستوى الذكاء من نظرات مُحدثه، وكما يبدو له من نظراتها فهي تتمتع بقدر كبير منه.

«سارة بدران»، قالت وهي تسحب خصلات شعرها الأشقر التي تتدلى بجانب خدها الأيمن إلى ما خلف أذنها، «صـــحفية في جريـــدة الشارع المصري»، أومأ لها برأسه مُرحبًا، «أهلًا بك»، قالهـــا وهـــو يتفحص ملامحها بعينيه، شقراء كانت يتدلى شعرها على كتفيها، أنفها الدقيق وفمها الأدق يُعطيانها ملامح طفولية تختلف تمامًا عن نظـــرات عينيها الواسعتين اللتين تشعان بالذكاء، «كيف أستطيع مُساعدتك يا آنستي؟»، قالها مُتسائلًا فانفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة، «أعلمُ أن رجال المباحث لا يحبون الصحافة كثيرًا، ولكني لن أُطيل عليك أو آخذ من وقتك الكثير»، ابتسامة صغيرة ظهرت على شفتيه شجعتها على مواصلة حديثها، «جئتُ لأحصُل منك على بعض المعلومات عن ذلك القاتل المُتسلسل الذي يُطلق على نفسه لقب عشماوي».

زفر المُقدم "هشام" بضيق، «ألا تعتقدين أنكِ جئتِ مُتأخرةً بعض الشيء، هناك صُحُفٌ كثيرة تناولت الخبر، لا وجود لسبق صحفي هُنا!»، قال بسُخرية، «أعلمُ ذلك جيدًا يا سيادة المُقدم، ولا أبحث عن سبق صحفي»، قالت مُحتدية، «ولكني أختلفُ كثيرًا عمن قاموا بنشر الخبر من دون وعي، أنا أبحثُ عن الحقيقة ولا شيء سواها»، صمتت قليلًا حتى ترى وقع كلماها عليه، ثم تنهدت، «عقلي يُخبرني أن هُناك شيئًا مُريبًا فيما يحدث»، صمتت مرة أخرى ومن دون استئذان مدت يدها إلى علبة سجائره الموضوعة على سطح مكتبه وتناولت منها واحدة وضعتها بين شفتيها، ثم أعادت العلبة إلى مكانها وتناولت القداحة، أشعلت لفافة التبغ وسحبت منها نفسًا عميقًا وهي تُطبق جفنيها، ثم نفثته ببطء، «آسفة، أنا لا أُدخن ولكن أحتاجُ إلى واحدة من وقتٍ إلى آخر»، قالت وهي تُعيد القداحة إلى مكانها فتناولها منها المُقدم "هشام" وأشعل لنفسه سيجارة، «كيف استطاع ذلك الرجل أن يقتل كل هذا العدد من الناس من دون أن يترُك خلفه دليلًا واحدًا، فضلًا عن عدم وجود أي مُقاومة من المجني عليهم؟! يبدو ليّ الأمر غير منطقيٍّ!»، قالت "سارة" بشرود، فابتسم لها، «أنتِ تُفكرين في الأمر نفسه الذي أُفكر فيه، ولكن فلتعلمي يا آنستي أنني لا أعرف أكثر مما تعرفين عن الأمر، هُناك قاتل وهُناك ضحايا، ولكن بلا رابط أو دليل من أي نوع، عفوًا لن يُمكنني مُساعدتك فيما تبحثين عنه»، قال بضيق بينما أضاءت شاشة هاتفه الصامت تُعلن عن

مُتصلٍ ما في انتظار رده، قام "هشام" بالرد وأنصت قليلًا إلى مُحدثه، «متى حدث هذا؟!»، قال لمُحدثه عبر الهاتف وقد ظهـــر الغـــضب الشديد في ملامحه، «ما العنوان؟!»، صمت قليلًا واستمع إلى إجابـــة مُحدثه، «سآتي حالًا»، أغلق الخط، ثم وضع هاتفه في جيبه ونظر إلى "سارة" مُتجهمًا، «يبدو أنك سعيدة الحظ تبحثُ عنكِ الأخبار بـــدلًا من أن تبحثي عنها!»، نظرت له بغـــير فهـــم، «جريمـــة جديـــدة لعشماوي»، قالها وهو يُشعل لنفسه لفافة تبغ غير مُنتبهٍ إلى السيجارة المُستندة في جانب مطفأة السجائر من دون أن يُنهيها، «هل يُمكنني الذهاب معك إلى مكان الحادث؟»، قالت بلهجة شبه متوسلة.

«لا أعتقد ذلك»، قال المُقدم "هشام"، «الـــضحية هـــذه المـــرة شخصية شهيرة، أعتقد أن الوضع أصبح خارجًا عن السيطرة، ولكن أعدك ألا يحصل أي صحفي آخر على معلوماتٍ قبلك»، قالها ونهض من مقعده مُعلنًا نهاية اللقاء، «أُقدر لك ذلك يا سيادة المُقدم»، قالت وقد ظهرت على شفتيها ابتسامتها المُمتنة.

***

مكان الحادث كان شبيهًا بخلية النحل، مُكتظًا برجال الـــشرطة والمعمل الجنائي، هُناك من يُعاين المكان، وهناك من يُدون شيئًا ما في دفتر صغير، هُناك من يرفعون البصمات ويُدققون في المكان بحثًا عن أي دليل، دلف المُقدم "هشام" من باب الـــڤيلا المُكونة من طـــابقين

يوصِل بينهُما سُلم داخلي، المكان كان عبارة عن صالة واسعة مليئة بالتُّحف والتماثيل باهظة الثمن، إلى اليسار من جهة البــاب يوجــد أنتريه فخم لاستقبال الضيوف، وعلى اليمين حجرة مكتــب المجــني عليها، إلى جوارها حمام واسع، وفي نهاية الصالة يقع الــسلم الــذي يربط الطابق الأرضي بالعلوي، إلى جواره مطبخ ضخم، العــساكر يملؤون المكان، بينما تقف فتاة شابة إلى جوار أحد العساكر، اقترب منها المُقدم "هشام"، «من أنتِ؟»، سألها وهو يتفحصها بعينيه، هيئتها الفقيرة وشعرها المُجعد الخشن، «خادمتك سُعاد»، أجابــت الفتــاة بصوتٍ مبحوح من فرط توترها، ترتجف كقطــة مــذعورة، «أيــن الجثة؟»، قال المُقدم "هشام" مُوجهًا سؤاله إلى الجُندي الواقــف إلى جوارها، «في الطابق العلوي يا أفندم»، أجاب وهو يُشير بيــده إلى السلم في نهاية الصالة.

صعد درجات السلم الرخامي، أومأ برأسه لأحد الجنود إشــارةً بليغة، فأشار له هذا الأخير إلى إحدى الغرف، اقترب "هشام" مــن باب الغرفة، فوجد ذات المنظر البشع الذي اعتاده منذ توليه هــذه القضية، الجُثة المُعلقة من رقبتها، اللافتة التي تحمل اسم "عشماوي"، المقعد المقلوب أسفل الجُثة، كــل شــيء كمــا توقعــه، يبــدو أن "عشماوي" هذا لن يتوقف عن القتل، وأن الأمر يزداد جنونًا يومًــا بعد الآخر.

فحص المُقدم "هشام" المكان من دون أن يجد شيئًا غــير مُعتــاد، الأمر يزداد صعوبة، فالضحية هذه المرة هي الدكتورة "ليلى العطيفي" عالمة شهيرة، صيتها ذائع، حصلت على العديد من الجــوائز المحليــة والعالمية، سوف تنقلب الدُّنيا رأسًا على عقب في الأيام التالية، لقــد خرج الأمر عن السيطرة، فمقتلها ورقةٌ رابحة لوسائل الإعلام الــتي ستتناقل الخبر لوقتٍ طويل مع التشويه اللازم لصورة رجال الشرطة واتهامهم بالتقصير في عملهم، الأمر كارثة بكل المقــاييس، ولكــن الطامة الكُبرى بالنسبة للمُقدم "هشام" كانت انهيار نظريته عن قتــل "عشماوي" للمُفسدين واعتقاده بأنه المُخلص الــذي يُنفــذ مُهمــة أوكلت له من السماء، فالدكتورة "ليلى العطيفي" عالمة قدمت الكثير من أجل البلد، ولها إنجازات عالمية، ويكفي خبر مقتلها بهذه الصورة لإحراج صورة مصر أمام العالم كله، والتشكيك في قُــدرة رجــال الشرطة على تحقيق الأمن.

هبط المُقدم "هشام" درجات السلم إلى الطابق السُّفلي واقتــرب من "سُعاد" خادمة الدكتورة "ليلى"، «أينَ كُنتِ وقت وقوع الحادث يا سُعاد؟»، سألها في لهجة مُهذبة برغم ما فيها من غضب، فارتجفــت الفتاة وحاولت أن تستجمع شتات فكرها، «لا أعلــم ســيادتك، اعتادت الدكتورة ليلى رحمها الله كل صباح أن تجلــس في حُجــرة مكتبها لتكتب مُذكراتها، بينما ذهبت أنا إلى المطبخ لأعد لها كوبًا من القهوة»، قالت الفتاة في ارتباكٍ ملحوظ، ثم صمتت قليلًــا تمــسح

دموعها، «من الواضح أنني غفوتُ قليلًا وأنا أجلس علـــى مقعـــد خشبي في المطبخ وعندما صحوتُ من غفوتي كانـــت القهـــوة قـــد انسكبت فأطفأتُ شُعلة البوتاجاز، علمتُ وقتها أن الدكتورة ليلـــى ستغضب كثيرًا، أعددت كوبًا آخر بسرعة وذهبت لأقدمه لها، فلـــم أجدها في مكانها بحثتُ عنها فوجدتها...»، أجهشت "سُعاد" بالبكـــاء وهي تُحاول أن تتكلم من بين دموعها، فجاء صوتها مبحوحًا مُتقطعًا، «فـــ..فـــ.. وجدتها في.. في حجرة نـــوم.. نومهـــا كمـــا رأيتـــها سيادتك».

لم يبد "هشام" مُقتنعًا بما قالته هذه الفتاة، ولكن لو كان ما قالتـــه صحيحًا، فمعنى ذلك أن الدكتورة "ليلى العطيفي" انتحرت ولم تُقتل، وإلا فكيف استطاع القاتل أن يتسلل إلى الداخل وإجبار الـــدكتورة "ليلى" على الصعود إلى حجرة نومها ومن ثم قيامه بشنقها، من دون أن تصرخ أو تحاول أن تستغيث ومن دون أن تـــشعر "ســـعاد" أو والدها الذي يعمل بوابًا بذلك؟!

الأمر مُحير ومُربك إلى أقصى درجة، عقل "هشام" المُنهك يُحاول أن يستوعب الأمر وأن يربط كل الخيوط بعضها ببعض ولكن بـــلا جدوى، سار بخطوات بطيئة إلى حجرة مكتب القتيلة وقام بتفتيشها بحثًا عن أي شيء يمكن أن يُساعده في حل هذه المُعضلة، لملم أوراق مُذكراتها وبعض الأوراق العلمية لدراستها فربما وجد فيها شيئًا مـــا يمكنه أن يُساعده في رحلة البحث أو ربما كان الأمر مُتعلقًا بأبحاثها، هو لا يعلم حقًا ما يبحث عنه، ولكنه كان يبذل كل ما في استطاعته.

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العطيفي"

«الثلاثاء الموافق 1985/1/1»

اليوم هو الأول من الشهر الأول في العام الجديد، بالأمس كان احتفال الناس في استقبالهم للعام الجديد شيئًا لم أرَ له مثيلًا من قبل، في مصر لا يعني لنا الاحتفال برأس السنة كما يعني لهؤلاء الناس الذين يرون فيه أعظم الأعياد المُبهجة.

أخبرني الدكتور "مورفي" أنه قرر الاحتفال باستقبال العام الجديد معي وحدنا إن لم يكن لديّ مانع في ذلك، بالتأكيد لا يوجد لديّ مانع بل إن طلبه هذا أسعدني كثيرًا، فالمرأة مهما يكن ما يشغلها من علم أو مهما يكن ما حققته، فهي تحتاج إلى ذلك الرجُل الذي يهبها اهتمامه ويكون إلى جوارها دائمًا.

اصطحبني معه إلى ڤيلته الضخمة بحديقتها الواسعة، كان قد أعد كل شيء للاحتفال، جلسنا نتحدث عن كل شيء، أحلامي وأحلامه، طموحاتي وطموحاته، مَد لي يده بكأسٍ من الخمر، فأخبرته أنني لا احتسي الخمر، ولكنه طلب مني أن أشرب هذه الليلة استثناءً نخب استقبال اليوم الأول من العام الأول لي في الولايات المُتحدة الأمريكية، ولأنه الاحتفال الأول لي في بلدٍ غريب فلأُجرب بعض العادات الغريبة.

لا أُحب تناول تلك الأشياء التي تُغيب العقل، ولكني ما كُنتُ يومًا مُتشددةً لآرائي أو مُتدينة بصورة كاملة، وافقتُ على مضض، شربت وشربت حتى بدأت الموجودات تهتزُّ في ناظريّ، وعقلي بدا مُشوشًا بعض الشيء.

قام الدكتور "مورفي" بتشغيل موسيقا هادئة، وتناول يدي برفق ليوقفني على قدميّ، يا له من أمرٍ غريب ومُثير! ذلك الرجل الذي كُنتُ أحلم يومًا ما بمُقابلته يُمسك يدي ويطلُبني الآن لأرقص معه، قُمتُ ووضعت يدي على كتفه بينما أحاط خصري بيده ورقصنا معًا، كان وقتًا مُمتعًا بحق، شعرتُ بسعادة عارمة تجتاحُ قلبي لا أعرفُ لها سببًا، هل هو تأثير الكحول على عقلي؟ أم لوجودي إلى جوار الدكتور "مورفي"؟ من وقتٍ لآخر نجلس لنحتسي بعض كؤوس الخمر ثم نعود لمواصلة الرقص، شعرتُ بيده تضيق حول خصري، يحتضنني ويضُمني إليه أكثر فأستسلم له، لا بل أرغب في احتضانه وأحتاجه.

اقتربت عقارب الساعة من الثانية عشرة مُنتـصف الليـل، فوجدتـه ينظُر ليّ بنظرات مُختلفة عن نظراته السابقة، ووجدته يهمس لي:

- أحبك.

لم أكد أسمع تلك الكلمـة الـساحرة حتـى وجـدتُها تخـرجُ مـن بـين شفتيّ:

- أنا أيضًا أحبك.

ومع دقات الساعة الثانية عشرة، ومع أولى لحظات العـام الجديـد، كانت شفتاه تحتضنان شفتيّ في قُبلةٍ لم يُفارق مذاقها فمي حتى الآن.

صحوتُ اليوم فوجدتني عارية في فراشه، لا يُمكنني تذكُّر تفاصيل ما حدث، ولكن أعلمُ جيدًا أنه حدث!

***

18

قرأت الأوراق التي تركها لي أبي "عرفة" قبل وفاتـه، وعرفـتُ أشياء كثيرة شوشت عقلي وأربكت تفكيري، كيف كان هذا الرجل يعلم كل هذه الأشياء واستطاع أن يكتمهـا داخلـه مـن دون أن يُصارحني بها، ولماذا أراد لي أن أعرف الحقيقة بعدما فـارق الحيـاة؟ أسئلة كثيرة دارت في عقلي أبحثُ لها عن إجابة.

وضعت الأوراق في الغرفة الداخلية التي أنام فيها في نهاية المحل، ثم عُدت إلى الخارج ونظرت إلى الكتب المُتراصة على الجانبين وإلى المرأة الواقفة عند باب المحل غير مُستوعبٍ كيف استطاعت هـذه المـرأة معرفة مكاني؟ هل رأتني عندما رأيتها في عملها مـن دون أن ألحـظ ذلك؟ هل تتذكر من أنا بالأساس؟!

اقتربت مني فهززتُ رأسي أسألها عما إذا كانت تُريدُ كتابًا بعينه، لم تُجب ولكنها اقتربت مني أكثر حتى وقفت أمامي مُباشرةً، ومدت كفها تتحسس نصف وجهي المُشوه بحنان، فأبعدتُ كفها عني بسرعة، «ماذا تُريدين؟!»، سألتها وأنا في حيرة من أمري وأمرها، فنظرت إلى عينيّ مُرتبكة، «لا تخف»، قالت بحنانٍ بالغ، «لن أُخبر أحدًا عن مكانك»، صمتت قليلًا ثم، «ولا تنس أنك أنقذتني من الموت قبل ذلك»، قالت وهي تبتسمُ برِقة، فأربكتني كلماتها كثيرًا.

«هل تتذكرينني؟!»، أفلت السؤال من بين شَفتيّ رغمًا عني، فابتسمت ابتسامة واسعة كشفت عن أسنانها ناصعة البياض، «وهل يُمكنني أن أنسى مَنْ أدين له بحياتي؟!»، سألت مُتعجبة فما زادني عجبها إلا عجبًا، تُرى ما الذي تُريده هذه المرأة مني؟!

«ماذا تُريدين مني؟»، خرج السؤال من بين شَفتيّ فجًا غاضبًا، «لا شيء»، أجابت ببساطة شديدة، «جئتُ فقط لأشكُرك لأنك لم تنقذ حياتي من الموت فحسب ولكن غيرتها للأفضل، هأنا أحيا بعيدًا عن ذلك الوحل الذي اعتدت الحياة فيه»، برغم الضيق الذي سببه لي وجودها ومعرفتها مكاني، فإن ما قالته عن حياتها التي تحولت للأفضل أسعدني كثيرًا وشعرت أنني أسيرُ في الطريق الصحيح نحو تحقيق غايتي وهدفي من الوجود.

«بالمُناسبة اسمي سوسن»، قالت وهي تمد كفها لتُصافحني، فما طاوعتني يدي لأُصافحها، بل بقيتُ جامدًا في مكاني لا أعرف ما التصرُف الصحيح للخروج من هذا المأزق.

نظرت إليّ وأنا واقفٌ كواحد من تماثيل الشمع لا حراك له، وبدا في ملامحها شعور بالضيق من مُعاملتي الجافة لها، أعــادت يــدها إلى جانبها مرةً أُخرى، «سؤالان أوَد لو أسألُهما لك وبعد ذلك لن ترى وجهي مرةً أُخرى، ولن أُخبِر أحدًا عن مكانك مهما يحدث»، قالت بجدية، فأومأت لها برأسي من دون إرادة مني بمعنى أن استمري في الحديث.

«كيف استطعت أن تقتل كُل هؤلاء الناس مــن دون أن يعثــر عليك رجال الشُرطة؟»، قالت وهي ترفع حاجبيها وتهز رأســها في عدم فهم، لم أكن أُريد لها أن تواصل أسئلتها لي وكأنها تــستجوبني، «ليّ طُرقي الخاصة»، أجبتها بصرامة ولوحتُ بــسبابتي في وجههــا مُحذرًا، «لا شأن لكِ بي يا فتاة، طُرُقي وعِرة لا يُمكــن لأحــد أن يسلُكها، ابتعدي عن طريقي وانسي ما حدث، بل انسي أنكِ رأيتني يومًا ما»، هممتُ بالابتعاد عنها حتى تنصرف مــن المحــل، ولكنــها أمسكت بمعصمي تستوقفني مرةً أُخرى، «لماذا تفعل مــا تفعلــه؟»، قالت وهي تحدق في عينيّ بنظرات مُلتاعة وتضغط على معصمي بقوة.

«لماذا أفعل ماذا؟»، سألتها مُدعيًا عدم الفهم، فلم تُحرك ناظريها عني، «لماذا تقتل هؤلاء الناس؟! الصُحف التي تناولت الخبر قالــت إنك لم تسرق شيئًا من أي ضحية، إن لم يكن هدفك هــو الــسرقة فلماذا قُمتَ بقتلهم؟ تبدو ليّ شخصًا هادئًا سويًا تعرف ما تفعله، كما

يبدو ليّ أنك لا تنوي التوقف عن القتل! لماذا؟!»، قالت والفضول يُطِل من عينيها مُتلهفة للمعرفة والفهم.

لا أعرف سببًا لما أردته، ولكني شعرتُ برغبةً عارمة في الإجابة عن سؤالها، «لأنهم كانوا فاسدين ومُفسدين، كلهم استحقوا الموت، وكثيرون آخرون يستحقونه ولسوف ينالونه على يديّ»، خرجت الكلمات من بين شفتيّ بتلقائية شديدة من دون إرادةٍ مني، وكأنها خرجت من قلبي، فأومأت برأسها وكأنها تعي ما أقوله جيدًا، «هل تعلم»، قالت وهي ترخي قبضتها عن معصمي، «كثيرًا ما أردتُ أن أفعل ما فعلته أنت»، أحنت رأسها في أسف، «واجهتُ الكثير من الصعوبات في حياتي، كُلها كانت بسبب الآخرين، الذين لا يُريدونَ مني سوى جسدي وكأن لا روح ولا عقل ولا إرادة لي»، أجهشت بالبكاء فانسابت الدموع من مُقلتيها، «لا أقتلهم لأنهم سببوا لي آلامًا، لا أعرفهم معرفةً شخصية من الأساس»، قُلتُ لها فاتسعت عيناها دهشة، وظهر عدم الفهم على ملامح وجهها، «قتلتهم لأنهم أفسدوا سلوكيات مُجتمعٍ كامل، وسببوا آلامًا للكثيرين من أجل تحقيق رغباتهم وحدهم».

دقيقة من الصمت مرت من دون أن ينطق أحدنا، مسحت فيها دموعها وتمالكت أعصابها، «ولكن ما لا أفهمه هو لماذا تُعرض نفسك للخطر بقتلك إياهم؟!»، قالت "سوسن" وقد ارتسمت على وجهها

علامة استفهام كبيرة إلى جوار علامة تعجب أكبر، «لأننا يجب أن نوقف هؤلاء.. يجب أن ينالوا العقوبة المُناسبة على ما اقترفوه من ذنوب وما ارتكبوه من أخطاء.. على أحدنا أن يفعل.. وأنا كُنتُ الأجدر بفعل ذلك، هذا هو واجبي تجاه البشرية»، قُلتُ ثم أشرتُ لها بيدي كي تنصرف، «والآن انصرفي من هنا ولا تعودي مرةً أُخرى، افعلي ما يجب أن تفعليه في الحياة، ابحثي عن الهدف من وجودك، لقد أخذتِ فُرصة لم يأخُذها أحدٌ غيرك، استغليها.. هيا»، استمعت إلى ما قُلته لها بلهجتي الآمرة، وسارت بخطواتٍ بطيئة نحو الباب، ثم توقفت والتفتت لي، نظرت إلى عينيّ نظرة طويلة.

«المُقدم هشام»، قالت فلم أفهم ما تعنيه، «ماذا؟!»، سألتها فعادت تُكرر، «المُقدم هشام.. رجل المباحث الذي يتولى التحقيق في القضية والمُكلف بالقبض عليك»، أومأتُ برأسي بمعنى أنني لا أفهم ما تُحاول أن تقوله، «أرجوك لا تقتله.. هو رجل طيب وما يفعله هو القيام بعمله، لا تقتله.. أرجوك»، أدهشني ما قالته حقًا، وتساءلتُ في نفسي عن السبب الذي جعلها تتوسل عدم قتله، يبدو أنها فهمت ما يدور في داخلي وأدركت حيرتي، «عندما قام باستجوابي لم يتعامل معي كما كان يتعامل معي الجميع، عاهرة تُحاول إغواء الرجال من أجل المال، بل عاملني برفقٍ لم أره في أحدٍ من قبل، حتى أنه لم يُحاول أن يحتجزني أو يُلقي بي في السجن، واكتفى بما لاقيته من ألمٍ»، قالت ما قالته وابتسمت في وجهي ابتسامة عذبة، «لقد أعطاني الفرصة لبدء حياةٍ جديدة تمامًا كما فعلت أنت»، ابتسمتُ لها فظهرت نظرة امتنان

في عينيها، «لا تقلقي.. عشماوي لا يقوم بتنفيذ حُكم الإعـــدام إلا على من يستحقه»، قُلتُ لها فأومأت برأسها مُتفهمة، «شُكرًا لك»، قالت واستدارت بجسدها إلى باب المحل وانصرفت إلى حيثُ لا أعلم.

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الثلاثاء الموافق 1985/1/29»

أصبحت حياتي أكثر صخبًا عما كانت عليه في السابق، أعملُ طوال النهار في إجراء التجارب على هؤلاء الذين يتمتعون بالإدراك الفائق للحواس وفحصهم سعيًا لإتمام بحثي، وفي الليل أقضي وقتًا حميمًا مع "ستيفن" إما في ڤيلته الضخمة أو في منزلي – الذي هو منزل والديه بالأساس – حيثُ أُقيم، الآن لا يُمكنني أن أتخيل حياتي من دون "ستيفن"، أحببته كما لم أُحب أحدًا من قبل، هو بدايتي وامتدادي ونهايتي، لعنه الله في كُل كتاب، استباحني واستحل جسدي له واستحللته لي حتى أنني نسيتُ أو تناسيت اختلاف الأديان فيما بيننا، ولم ألحظ طوال الفترة السابقة أنه يتلاعب بمشاعري الغرة للوصول إلى هدف ما في رأسه.

اليوم بعدما توصلت وأنا في المعمل إلى المادة التي يُمكنني حقنها في الناس العاديين لتُكسبهم تلك القُدرات الفائقة، كنت أشعر في داخلي أن اليوم هو يوم سعدي، فها هو حلمي يتحقق بأسرع مما كُنتُ أتخيل أو أحلم، ذهبتُ إلى مكتبه لأعرض عليه الأمر تمهيدًا لاختباره، فسمعته من الخارج يتحدث مع الدكتور "شيروكوف" صديقه وبئر أسراره، لا أعلم ما السبب الذي جعلني أسترق السمع ولكنه الفضول الأُنثوي الأزلي، سمعت "شيروكوف" بإنجليزيته الرديئة يقول:

– لم تأتِ سيلينا إلى العمل اليوم، إنها غاضبة يا صديقي مما تفعله مع هذه المصرية.

أجابه "مورفي" بكلماته التي حطمت قلبي:

– أنا أُحبُ سيلينا وأنت تعلمُ ذلك جيدًا، كُل ما أفعله مع ليلى هدفه بث الثقة في داخلها من ناحيتي حتى نتمكن من الفوز بما يُمكنها تحقيقه، كلانا يعلم أنها الوحيدة القادرة على تحويل هذا الحلم إلى واقع، هي وحدها من تملك طريقة فعل هذا، وأعتقد أنها قد اقتربت كثيرًا من إنجازه، اطمئن يا صديقي، قريبًا جدًا سننتهي من تلك اللعبة السخيفة.

سأله "شيروكوف" قائلًا:

– وماذا عن سيلينا؟

أجاب "مورفي" بهدوء:

- سيلينا عاقلة وعملية جدًا، أعتقد أنها ستتفهم الأمر عندما أُخبرها عن سبب ما فعلته مع ليلى، المسألة ليست شخصية هذا ما يتطلبه العمل، وتعلم سيلينا أن العمل هو أهم ما في حياتي.

كانت كلماته كافية لإحالة يوم سعدي إلى أتعس أيام حياتي، انهرت تمامًا وأغرقت دموعي نيران قلبي، اليوم عرفت معنى الخيانة، وعرفتُ جيدًا أن لا مكان لي بين هؤلاء الذئاب.

***

19

«لقد فقدتُ قُدرتي على تقييم الموقف يا إيمــان»، قــال المُقــدم "هشام" لزوجته وهو يجلس إلى جوارها على الفراش في غُرفة نومهما، «هُناك خطأ ما في الأمر، عشماوي هذا لا يقتُل المُفسدين وإلا فمــا سبب قيامه بقتل الدكتورة ليلى العطيفي وهي من أعلام البلد ولهــا الكثير من الإنجازات، كما أثبتت التحريات عن كونها عضوة نشطة في أكثر من جمعية خيرية لرعاية الأطفال الأيتام أو المُشردين الذين لا أهل لهم»، سحب نفسًا عميقًا من سيجارته نفثه ببطء وأومأ برأســه يمينًا ويسارًا في ضيق، «ثم وهذا هو المُهم، كيف استطاع القاتــل أن يقوم بمثل هذه الكريمة بهذا القدر من البساطة ومن دون أن يــراهُ أو يشعُر به أحدٌ ما، ومن دون أن يترُك خلفه دليلًا واحدًا!»، ضــرب بقبضته على سطح الكومود المُجاور للفراش بعصبية شديدة، «ما هذا

العبث؟! أنحنُ أمام قصة خيالية؟!» قال وهو يلتقط منفضة السجائر التي سقطت على الأرض إثر ضربته سطح الكومود، «اهدأ يا حبيبي»، قالت "إيمان" وهي تُربت على ظهره في مُحاولةٍ منها لتهدئته، «لا تدع اليأس يتسلل إلى قلبك ويتمكن من عزيمتك، بالتأكيد هُناك تفسير منطقيٌّ لكل ما يحدُث»، صمتت قليلًا وهي ترمق وجهه المُحتقن غضبًا، «ولا يعني قتله للدكتورة ليلى انهيار نظرية القاتل المُتسلسل الذي يعتقد في تنفيذه عدالة السماء، رُبما كانت الدكتورة ليلى شخصية معروفة لها إنجازاتٌ كثيرة ولكن الناس جميعًا يُخطئون، فحياتها بالتأكيد ليست خالية من الأخطاء، ومع ذلك لا أُحاول أن أقول بأن الأمر هكذا، ولكن ما أُحاول أن أقوله هو أنك يجبُ عليك ألا تدع اليأس يُفقدك القُدرة على الاستمرار في البحث»، أنهت حديثها، فلم تشعُر بأي تغيير في مزاج زوجها بل بقي صامتًا مُحتقن الوجه كما كان.

نهض من فراشه فهبّت زوجته لتلحق به، فأشار لها أن تبقى حيثُ هي، أطاعته صاغِرة وهي تُفكر فيما يُمكن أن تفعله لتُساعد زوجها، تُفكر فيما سوف تنتهي إليه هذه المأساة.

وقف المُقدم "هشام" في الشُّرفة يُدخن وهو يرمق الشارع الخالي من المارة في هذا الوقت المُتأخر، وأول ما فعله في الصباح هو الذهاب إلى مكتب اللواء "طلعت الجارحي"، جلس في مُقابلته ووجهه ينطق بعلامات الخيبة واليأس اللذين تمكنا منه في الفترة الأخيرة، «أحتاجُ

إلى إجازة يا سيدي»، قال بانكسار لم يعهدهُ فيه اللواء "طلعت" فنظر له غير مُستوعب، «ماذا تقول يا هشام؟!، أتُريدُ إجازةً في مثل هـذا الوقت؟! وماذا عن القضية التي بين يديك؟»، سأل مُحتدًا، فطأطـأ المُقدم "هشام" رأسه، «القضية صعبة جدًا يا سيدي، يبدو أننا أمام أمرٍ أكبر منا كثيرًا، أحتاجُ إلى إجازة أسبوعًا واحدًا أُقيم فيه الأمر وأقوم بترتيب أفكاري»، أومأ اللواء "طلعت" برأسه يمينًا ويسارًا وكأنه لا يرضى بما يحدُث، «أعلمُ أن الأمر ليس سهلًا يا هشام، وأنت تعلـم مدى حُزني على خسارة ولدي وما سببته لي هذه القضية من ألمٍ، لقد وثقتُ بقُدرتك على حلها يا هشام، أنت ابني، ولم أعتد منك علـى الفشل، أنا أثقُ بك يا هشام»، قال وهو يُحاول إعادة ثقة "هـشام" بقُدراته.

«وأنا أيضًا لم أعتد الفشل يا سيدي»، قالها المُقدم "هشام" بغضب شديد، ناسيًا فرق الرُّتب بينه وبين اللواء "طلعت" ثم تدارك نفـسه وهدأ قليلًا، «عُذرًا يا سيدي، أعصابي مُتوترة قليلًا»، أومـأ اللـواء "طلعت" برأسه مُتفهمًا وإن لم يكن راضيًا عما قاله المُقدم "هشام"، «لم أعتقد يومًا أنني سوف أفشل في حل قضية ما، ولكن الأمر أكبر مني يا سيدي، أعلم ما تعنيه لك هذه القضية وهي تعني لي الشيء ذاتـه، ولكني أحتاج إلى ترتيب أفكاري حتى يُمكنني المُتابعة»، قال فصمت اللواء "طلعت"، كان يؤلمهُ أن يرى عجز المُقدم "هشام" وهو الشاب المُفعم بالحيوية والنشاط والذكاء ويثق بقُدراته على إيجاد الجاني.

«أسبوعًا واحدًا يا هشام»، قال اللواء "طلعت" وهو يُشير بسبابته في وجهه مُحذرًا، «لن أقوم بتسليم القضية لغيرك، ستكون أنت من يتولاها حتى النهاية»، أومأ "هشام" برأســه موافقًــا، وأدى تحيتــه العسكرية وانصرف.

لم ينسَ قبل أن يمضي إلى منزله أن يمُر على حُجرة مكتبه ويأخُــذ الأوراق الخاصة بالدكتورة "ليلى العطيفي"، مُذكراتها وأوراق أبحاثها وملفات القضايا، كل ما قد يحتاجه أخذه معه لدراسة الأمــر مــن البداية أثناء عطلته بتمهُّل.

***

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الجُمعة الموافق 1985/2/22»

عُدتُ إلى مصر فما وجدتُ أحدًا يستقبلني أو يُسعده حضوري فيحتضنني سوى تلك الجُدران العتيقة التي جمعتني يومًا ما بوالدي ووالدتي، أسبوعًا واحدًا أعددتُ فيه لعودتي إلى مصر، وعُدتُ من دون أن أُخبر "مورفي" شيئًا، يكفي ما سببه لي من عطبٍ في روحي، يكفي تلاعُبه بمشاعري وجسدي، يُحركني كيفما يشاء كدُمية ماريونيت لا تملكُ من أمرها شيئًا، فهمتُ الآن معنى أن تكون فأرًا يجرون عليك التجارب التي تعود عليهم بالمنفعة، بينما لا تحصُل منها أنت سوى على المهانة والذُل والخواء الداخلي.

ما عادت لي القُدرة على مواصلة ما بدأتُ، حتى بعدما توصلت إلى نتيجتي النهائية لا يُمكنني تجريبها أو اختبار صلاحيتها للعمل،

تذكرتُ أبي الدكتور "جمال العطيفي" ذلك الرجل الذي لم ييأس يومًا، لكم تمنيتُ أن يكون إلى جواري لتعزيز عزيمتي التي وهنت فما عُدتُ أقوى على المُتابعة.

وقفتُ أُحادث أبي الساكن في صورته العتيقة، أشكو له ما حَلّ بي وأذلني، فحلمتُ به في نومي أول أمس، ربتَ على كتفيّ وقال بيتًا من الشعر لأمير الشُّعراء "أحمد شوقي".. وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذُ الدُّنيا غِلابا.

صحوت من نومي أشعُر ببعض التحسن، وعلى لساني تردد بيت الشعر الذي قاله أبي، حقًا تؤخذ الدُنيا غِلابا، يجب أن أُقاتل من أجل تحقيق حلمي، وإن لم يكن هُناك من يُمكنني أن أُجرب عليه تجربتي، فلأكُن أنا فأر التجارب الذي أُجرب عليه تجربتي وما فاز باللذة إلا الجسور، فإن نجحت تجربتي تمتعتُ بذلك الإدراك الحسي الفائق وقدمت الإنجاز الذي طالما حلمتُ به وربحت كل شيء، وإن فشلت فما سيُضيرني أكثر مما أنا فيه الآن؟!

تمالكتُ نفسي واستجمعتُ رباطة جأشي وقُمتُ بحقن المادة التي أسميتُها "ESP" في عروقي وانتظرتُ النتيجة.

مع غروب الشمس شعرتُ ببعض الغثيان فبدأتُ أقيء ورقدتُ في فراشي تميد الدنيا من حولي ولا أعرف ماذا حل بي، استدعت خادمتي "خديجة" أحد الأطباء، فجاء وقام بفحصي ومن ثم قام بتفجير قُنبلته المُدوية، ها هي بذرة "مورفي" النجسة تنبت في أحشائي جنينًا لتُعلن سقوطي في فم الهاوية السحيقة، هاوية العار!

20

الأوراق التي أعطانيها أبي "عرفة" قبل وفاته والتي قرأتها قبل أن تدخل عليّ "سوسن" من باب المكتبة لترجوني ألا أقتل المُقدم "هشام" كان مُحتواها الآتي:

«ولدي الذي ما أنجبته ولكن أحببته، ما سوف أُخبرك به في سطوري التالية حقيقةً أخفيتُها عنك طوال حياتي، فما أردتُك أن تعرف من هي والدتك التي أنجبتك وتركتك للموت، فالأُم الحقيقية هي التي تبُثُّ دفئها لولدها وتهبه العطف والحنان والحُب، والدتك الحقيقية يا ولدي هي أُم صُبحي، أما والدتك التي أنجبتك ولم تُقدم لك أكثر من ذلك هي الدكتورة "ليلى العطيفي" العالمة الشهيرة.

مُنذُ ما يقرب من الثلاثين عامًا وقبل أن أشتري تلك المكتبة التي نعيش من خيرها كُنتُ أبيع الكُتب والجرائد على أرصفة شوارع

القاهرة، وكُنتُ وقتها مُتزوجًا بأُم صُبحي، ولكن بحُكم عملي والحصول على لُقمة العيش كُنتُ أُقيم في القاهرة في غُرفة ضيقة على أحد السطوح، بينما بقيت أم صُبحي في بيتنا الصغير بقريتنا "سمهود"، ولم أنجح في إقناعها بالانتقال إلى القاهرة للعيش معي، كان تعلُقها بالقرية أكبر من قُدرتها على تركها، ولبُعد المسافة كُنتُ أبقى في القاهرة ثلاثة أشهر كاملة قبل العودة إلى القرية، كما هو الحال دائمًا.

يومًا ما يا ولدي رأيتُ فتاةً شابة اسمها "خديجة" تتسولُ في الشوارع بحثًا عن لُقمتها، وعندما سألتها عن أهلها من يكونون ولماذا تتسولُ هكذا في الشوارع، فظاهرة التسول يا ولدي لم تكن وقتها مُنتشرة كالوقت الحالي، أجابتني أن لا أهل لها، فوالدها ماتت، وزوجة أبيها القاسية طردها من البيت، وأنها تتسول لأن ذلك أفضل لها من أن تمد يدها للحرام، كُنتُ وقتها شابًّا أحتاجُ إلى امرأةٍ في حياتي، وأُم صُبحي لا أراها سوى مرة واحدة كُل ثلاثة أشهر، تزوجتها على سُنة الله ورسوله وسكنت معي في غُرفتي فوق السطح وتوقفت عن التسول.

"خديجة" كانت طيبة ترضى بأقل القليل، وافقت أن يكون زواجنا سرًّا من دون علم أُم صُبحي، فأنا لا أُريدُ أن أجرح مشاعر هذه الأخيرة، ويومًا ما أخبرتني "خديجة" أنها ترغب في العمل خادمةً في أحد البيوت لأن العبء أصبح ثقيلًا عليّ بعدما كبر "صُبحي" واقترب من السن المُناسبة لدخول المدرسة، وافقتُ على مضضٍ بعد

إلحاحٍ شديدٍ منها أن تعمل في بيت الدكتورة "ليلى العُطيفي"، وبعد فترة ليست كبيرة من عملها عادت "خديجة" يومًا ما وهي تحملك على ذراعيها قطعةً من اللحم الأحمر، وقالت إنك ابن الدكتورة "ليلى" عهدت بك إليها لتقوم بتربيتك مُقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال، لأنها – ليلى العطيفي – تخشى الفضيحة والعار بعدما أنجبتك من الحرام، ورفض والدك – الذي لا يعلمُ إلا الله من هو – الاعتراف بك ولدًا له.

حقيقة الأمر يا ولدي، لم أقبل وجودك معنا طمعًا في المال ولكن لخوفي من المصير المجهول الذي ينتظرك إذا ما رفضتُ، أربعة أعوام كاملة لم أسعَ فيها لاستخراج شهادة ميلادٍ لك لظني أن الدكتورة "ليلى العُطيفي" تلك سوف تُحاول استعادتك، ولكن بعدما ماتت "خديجة" بمرض عضال لم تُحاول هذه السيدة "ليلى" أن تبحثَ عنك أو تُحاول استعادتك، علمتُ وقتها أنها قد تخلت عنك للأبد.

جلبتُكَ معي إلى بيتنا الصغير في القرية، وقُمتُ باستخراج شهادة ميلاد لك باسمي واسم "جميلة" أم صُبحي، والدتك الحقيقية يا ولدي هي "خديجة" رحمها الله ومن بعدها أُم صُبحي، أما "ليلى" تلك لا تستحق بنوتك لها، ولم أُخبرْك عنها لتبحثَ عنها ولكن لأنك تستحقُّ أن تعرف الحقيقة فلا يطمسُها موتي.

أوصيك بأم صبحي خيرًا، فليس لها من بعدي سواك، ادعُ لي بالرحمة يا ولدي».

"من مُذكرات الدكتورة ليلى العُطيفي"

«الإثنين الموافق 2002/9/2»

ما يزيد عن السبعة عشر عامًا مرت دون أن أكتب فيها حرفًا في مُذكراتي، احتجتُ إلى قراءة آخر ما كتبته حتى يُمكنني المُتابعة، وكأنني كُنتُ ميتة لما يزيد عن السبعة عشر عامًا الماضية، وهأنا قد عُدتُ إلى الحياة مرةً أُخرى.

والدتي المريضة لم تحتمل سماع خبر حملي بغير زواج وأنا ابنة الدكتور "جمال العُطيفي" رجُل الشرف عطِر السيرة، فماتت بحسرتها لتضع آخر نقطة سوداء في لوحة السواد التي ارتسمت بها حياتي.

أكثر من مرة حاولتُ أن أتخلص من الجنين في بطني ففشلت، وكأن ذلك اللعين يتشبثُ بالحياة رُغمًا عن أنفي، لم أحتمل رؤيته يوم ولدته فوجهه المُشوه نصف المُحترق كان أكبر من قُدرتي على

التحمل، وُلِدَ هذا اللعين مُشوهًا لأنه ابن الخطيئة، وما جاء وجهه مُشوهًا إلا ليتحدى ذاكرتي على نسيان ما فعلته أنا في السابق، فما احتملت تربيته معي وما طاوعتني نفسي في التخلص منه بعدما نبض قلبه بالحياة، فعهدتُ إلى خادمتي الشابة الريفية الفقيرة "خديجة" بتربيته مُقابل مبلغٍ ضخمٍ من المال.

كُنتُ أراهُ بين الحين والآخر، ولكني لم أرهُ مُنذُ ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، فبعدما ماتت "خديجة" اختفى الصغير وكأنه لم يكُن، اختفت جريمتي الكبيرة وما بقي منها سوى صوت ضميري الغاضب يوبخني طوال الوقت.

حاولتُ التغلب على صوت الضمير بانضمامي إلى بعض الجمعيات الخيرية لرعاية الأيتام، واصلت حياتي وقدمت بعض الإنجازات التي وضعت اسمي بين أسماء المشاهير في الأوساط العلمية، ولكني ما حققت الإنجاز الذي حلمتُ ووالدي به.

أحيا حياةً مُزدوجة، فبين الناس أنا الدكتورة "ليلى العُطيفي" صاحبة الإنجازات العلمية والقلب العطوف الذي يرعى مئات الأيتام، أما بيني وبين ذاتي فأنا الدكتورة "ليلى العُطيفي" التي لا يُمكن أن يأتيها النوم قبل أن تُنهي زُجاجة كاملة من الخمر.

تلك هي قُدرتي الخارقة التي باتت تؤرق فكري وجسدي معًا.. التركيبة التي صنعتها لم تكُن تُزود الفرد بنوع من الإدراك الفائق للحواس فحسب، بل كانت تخلق نوعًا جديدًا منه، وقُدرتي أو لعنتي كانت عدم قُدرتي على النوم على الإطلاق!

21

انتهت الدكتورة "إيمان" زوجة المُقدم "هشام" من قراءة مُذكرات الدكتورة "ليلى العُطيفي" وبدت الدهشة الشديدة على ملامحها، نظرت في عيني زوجها بعينين مُتسعتين، «لا أكاد أُصدق ما قرأته للتوِّ»، قالت فابتسم زوجها وقد بدت السعادة واضحة في ملامحه، فقد استطاع أخيرًا حل اللُّغز المُحير، وما بقي سوى القبض على القاتل، «أنا أيضًا أكاد لا أُصدق ما قرأته، ولكن الأمر يبدو مُتماسكًا جدًّا»، قال فأومأت برأسها، «هو كذلك بالفعل»، قالت مؤمنة على ما قال.

دخل المُقدم "هشام" إلى غُرفته وقام بتبديل ملابسه بسُرعة، ثم عاد إلى زوجته الجالسة في الصالة تُعيد قراءة الأوراق من جديد، «يجب أن أذهب الآن إلى مكتبي، حان وقت العودة إلى العمل»، قال وهو

يختطف الأوراق من بين يديها، فنهضت من مقعدها واحتضنته برفق، «كُنتُ أثق من البداية بقُدرتك على حل اللُغز»، قالت وهي تلثم خديه بسعادة فابتسم لها، «شُكرًا يا عزيزتيّ»، قالها ولثم جبينها، ثم انصرف مُسرعًا.

ركب سيارته وانطلق بها بسرعة شديدة، يود الوصول إلى مكتب اللواء "طلعت الجارحي" في أسرع وقتٍ مُمكن ليُخبره بما توصل إليه، وصل إلى المبنى الضخم للمباحث، فترجل من سيارته وسار باتجاه مكتب اللواء "طلعت"، استوقفه أحد العساكر في الطُرقة الطويلة التي يقبع مكتب اللواء "طلعت" في نهايتها، «هُناك شخصٌ ما في انتظارك بمكتبك يا سيدي»، قال العسكري مُشيرًا إلى حجرة المكتب الخاصة بالمُقدم "هشام"، «من هو؟»، سأله هذا الأخير فأومأ الأول برأسه ما يعني أنه لا يعرف.

تعجب المُقدم "هشام" كثيرًا، فهو في إجازة من العمل لم تنتهِ مُدتها بعد، قام بتغيير مساره مُتجهًا إلى غُرفة مكتبه، فتح الباب ليجد شخصًا ما يجلس إلى أحد المقعدين أمام مكتبه، لم يتبين ملامح الشخص الجالس أمام مكتبه لأنه كان جالسًا بجانبه ولم يُدر رأسه ناحية الداخل، «من أنت يا سيدي؟»، سأل هشام وهو يقترب أكثر من الجالس.

«اسمي الحقيقي هو مؤمن عرفة ولكن اسمي في أوراقكم هو عشماوي»، قال الجالس وهو يستدير برأسه ناحية المُقدم "هشام"

الذي تراجع خطوتين إلى الخلف من فرط دهشته، «كُنتُ أعتقد أنك تبحث عني مُنذ فترة، فلماذا تتراجع الآن إلى الخلف؟! اجلس يا سيادة المُقدم، أُريد أن أتحدث إليك قليلًا»، قال وهو يُشير إلى المُقدم "هشام" بالجلوس، فجلس هذا الأخير في مُقابلته ولم يكُن قد تخلص من دهشته بعد، فرؤيته لذلك الوجه نصف المُحترق الذي وصفته له "سوسن" من قبل كان أبعد ما يكون عن مُخيلته.

«كيف علمت بقدومي اليوم؟!»، سأل المُقدم "هشام" وهو يُحاول أن يتمالك أعصابه بقدر المُستطاع، «لم أعلم»، قال "مؤمن" وهو يزمُّ شفته السُفلى كناية عن عدم معرفته بالأمر، «إنها المصادفة، جئتُ بلا علم مني عن إجازتك، وأخبرني الجُندي الواقف أمام باب المكتب أنك في إجازة من عملك، فدخلتُ إلى الحُجرة وما كُنتُ أنتوي فعله هو أن أترُك لك رسالة أخبرُك فيها عما أُريده منك، ولكنك جئت قبل أن أبدأ في كتابتها»، قال بلهجته الواثقة الهادئة.

«وكيف سمح لك هذا الأحمق الواقف أمام الباب بالدخول»، سأل المُقدم "هشام" بعصبية شديدة وهو يُشعل لفافة تبغ، «لا تظلمه يا سيدي، فلا أحد يُمكنه منعي من شيءٍ أُريده»، أجاب بثقة لم يرَ لها المُقدم "هشام" مثيلًا، فشعر ببعض الارتباك، من المُفترض أن الجالس أمامه مُجرم يخشى عقاب القانون، فما الذي أتى به إلى هُنا ولماذا يتكلم بهذه الثقة الفظة؟!

«ما الذي أتى بك إلى هُنا وأنت تعلمُ جيدًا أنني أبحثُ عنـــك، لا تبدو لي ثقتك الزائدة بنفسك كمـــن يرغـــب في تـــسليم نفـــسه للعدالة؟»، سأل وهو يحدق في عينيه بنظـــرات قاســـية مُتفحـــصة، «العدالة؟! هل قُلتَ العدالة؟»، سأل "عـــشماوي" بلهجـــة شـــبه مسرحية، «ومتى استطعتم تحقيق العدالة قبل وجود عـــشماوي يـــا سيادة المُقدم؟!»، سأل مُستنكرًا ولم ينتظر الإجابة، «العدالة الحقيقية هي ما أُقدمها أنا للمُجتمع»، قال وهو يُشير إلى نفسه، فنفث المُقدم "هشام" دُخان سيجارته وتبدى الغضب في ملامحه، «دعـــني أُعيـــد سؤالي بصورة أُخرى»، قال هذا الأخير وهو يُلقي بسيجارته علـــى الأرض ويدهسها بقدمه ليُفرغ فيها غضبه بدلًا من إطفائها في المطفأة، «ما الذي أتى بك إلى هُنا وأنت تعلم أنك بمجيئك إليّ تُسلم رقبتك لحبل المشنقة؟!»، سأل وهو يُقرب وجهه منـــه ويحدجـــه بنظـــرات مُتحدية غاضبة، فرجع "عشماوي" بظهره للخلف مُستندًا إلى ظهـــر المقعد، «المشنقة هي سلاحي أنا يا سيادة المُقدم وليست ســـلاحكم، فلا يُمكنك تسليمي إلى المشنقة إن لم أرغب أنا في ذلك»، قال بهدوئه القاتل الذي زاد من غضب المُقدم "هشام"، «دعنـــا مـــن التهديـــد والوعيد اللذين لا يُجديان نفعًا، جئتُ إلى هُنا لأنـــصحك أو قُـــل أُحذرك أن تبتعد عن طريقي وتتركني أفعل مـــا أفعلـــه، مـــن دون مُحاولتك اعتراض طريقي، أعلمُ جيدًا أنك شخصٌ مُلتزم أخلاقيًّـــا ودينيًّا، وأن ما تفعله هو أنك تؤدي عملك، وأنا أيضًا مثلك أقـــومُ

بتأدية عملي وواجبي، قدم اعتذارًا عن القضية يا سيادة المُقدم وابتعد عن طريقي، فطريقي لا يحتمله بشر»، قال وهو يرفع سبابته في وجه المُقدم "هشام" مما أثار غضب هذا الأخير.

«أجئتَ إلى مكتبي لتهددني بهذا الكلام السخيف؟!»، سأل المُقدم "هشام" بغضبٍ عارم مُستنكرًا ما سمعه، «ألا تتُرك ما تفعله؟! أنت قاتل وعقابك الوحيد هو حبل المشنقة و...»، استطرد مُحتدًّا، «لستُ قاتلًا»، قال "عشماوي" مُقاطعًا، «يُمكنُكَ أن تعتبرني كالقاضي الذي يصدر حكمه بالموت على من يستحقونه، كل من ماتوا استحقوا الموت واستحققهم»، قال، فبدت كلماته للمُقدم "هشام" كمُحاولة للتبرير أو نوع من خلل التفكير لديه.

«لا تُحاول أن تُبرر أفعالك»، قال المُقدم "هشام" بغضب، «من أعطاك الحق في مُحاسبتهم أو قتلهم؟! من قام بتعيينك قاضيًا لتحكُم عليهم بالموت؟ من أنت لتُقرر من يستحق الحياة ومن لا يستحقها؟!»، سأله هذا الأخير باستنكار وغضب شديدين.

«قُدرتي الممنوحة لي من السماء هي من فعلت، هي من أعطتني الحق في قتل هؤلاء المُفسدين»، قال "عشماوي" بتحدٍّ شديد، فأومأ المُقدم "هشام"برأسه مُعترضًا، «القُدرة التي لديك لم تمنحك إياها السماء، بل منحتك إياها الدكتورة «ليلى العُطيفي" والدتك التي قتلتها أنت بيدك»، صمت قليلًا، ثم استطرد مُفسرًا، «استطاعت

الدكتورة "ليلى العطيفي" استخلاص مادة مُعينة يُمكن عن طريق حقنها في أي شخص أن تمده بقُدرات فائقة للحواس، لم تُحقق تجربتها النتائج المرجوة منها، فكانت تخلقُ نوعًا جديدًا من القُدرات لا يُمكن السيطرة عليها، قامت الدكتورة "ليلى" بحقن نفسها بهذه المادة لأنها لم تجد من يُمكنها أن تقوم بالتجربة عليه، كُنت أنت وقتها جنينًا في أحشائها فجئتَ إلى الحياة بهذه القُدرة الفائقة للحواس ولكنك...»، أنهى المُقدم "هشام" كلامه وهو يُشير إلى النصف المُحترق من وجه "عشماوي" إشارة ذات معنى.

شعر "عشماوي" بدهشة كبيرة من كلمات المُقدم "هشام"، فهذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها حقيقة الأمر وكيف أن قُدرته الفائقة لم تهبها له السماء، بل من وهبتها له هي نفسها من تخلت عنه، «لا يختلف الأمر كثيرًا»، قال بذات اللهجة الواثقة، «أنا لم أفعل شيئًا لتكون لديّ هذه القُدرة، وُلدتُ لأجدها لديّ، هُناك هدف ما من ذلك، وهدفي هو تطهير المُجتمع وقتل المُفسدين أيًّا كانوا، وبث الرُّعب في قلوب من يسعون لفعل الشر ويتخذونه مسلكًا لتحقيق رغباتهم الشريرة»، قال مُحتدًّا.

«كل ما تقوله هو مُحاولة ساذجة منك لتبرير أفعالك»، قال المُقدم "هشام"، «أنت قاتل يجب تقديمك للعدالة لتنال العقاب ذاته الذي نفذته في الآخرين»، ابتسم "عشماوي" لدى سماعه عبارة المُقدم "هشام" الأخيرة، «عُذرًا يا سيادة المُقدم، ولكن لا يُمكنُكَ فعل ذلك،

فأنا لم أقتُل أحدًا، كل من ماتوا هُم من قتلوا أنفُسهم، انتحروا شنقًا، لا علاقة لي بما يحدُث وأنت أدرى مني بذلك»، قال، فضيق المُقدم "هشام" عينيه في عدم فهم، «ما الذي تقوله؟»، سأله هذا الأخير في مُحاولة منه لفهم ما يقوله، «نعم يا سيادة المُقدم.. أنا لم أقتل أحدًا، كلهم ماتوا مُنتحرين، نسيتُ أن أُخبرك بأن قُدرتي الخارقة هي التلاعُب بالعقول، ما فعلته أنا هو التلاعُب بعقولهم جميعًا وإجبارهم على تعليق اللافتة التي تحمل اسم عشماوي على صدورهم لتكون تحذيرًا لأمثالهم من الناس ومن ثم قيامهم بشنق أنفُسهم، لا دليل يُمكن أن تجده ضدي، فأنا لم أقتُل أحدًا بالفعل، هل يُمكنُكَ إدانتي على التلاعب بعقولهم؟! هل يُمكنُكَ إثبات ذلك يا سيادة المُقدم؟!»، سأله بسُخرية فصمت المُقدم "هشام" مُتحيرًا ومصدومًا، لم يكُن يتوقع أن يكون الأمر هكذا حتى في أسوأ كوابيسه.

«كما أخبرتك من قبل يا سيادة المُقدم»، قال "عشماوي" وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة مُتشفية، «عدالتكم لا تتحققُ دائمًا، عدالتكم بطيئة مُملة تبحثُ عن دلائل مادية قد لا يكون لها وجود لإدانة المُخطئ، عدالتي أو قُل عدالة السماء هي الأقوى والأصلح، هي العدالة الحقيقية التي لا يُمكن لأحد إعاقتها»، سمع المُقدم "هشام" ما قاله ثم نظر إلى عينيه بتحدٍّ، «حتى إن لم يكُن بمقدوري إدانتك أو تقديمك للعدالة ولكن يُمكنني أن أمنعك من القتل مُجددًا، سأُلقي بك في السجن لكي لا يُمكنك أن تفعل ما فعلته من قبل، حتى إن

اضطررتُ أن أُلفقُ لك تُهمة لم تفعلها»، قال، فضج المكان بضحكات "عشماوي" الساخرة، «لن يُمكنك فعل ذلك يا سيادة المُقدم، ضميرك لن يسمح لك بسجني لتُهمة مُلفقة»، قال، فحدجه المُقدم "هشام" بنظراته المُتحدية، «سوف تكتشف أن بإمكاني القيام بذلك بلا تأنيب من ضميري، فأنت قاتل وواجبي أن أفعل أي شيء يمنعك من القتل مُجددًا حتى إن اضطررتُ لتلفيق التُّهمة التي تزج بك إلى السجن»، ذات الابتسامة الساخرة ظهرت على شفتي "عشماوي"، «يُمكنك أن تُجرب ذلك يا سيادة المُقدم، كما يُمكنني أن أجعلَكَ ضحية عشماوي التالية، لكن ضميري لن يسمح لي بقتلك وأنت رجل صالح، كما لن يسمح لك ضميرك بفعل ما قُلته لإثنائي عن مُهمتي، ابتعد عن طريقي يا سيادة المُقدم، فطريقي يعني الموت ولا شيء غيره»، قالها، ثم حاول أن يُهدئ من نبرته الحادة، «بالتأكيد أنت تُريدُ خيرًا بالمُجتمع الذي تحيا به، قَدِّم اعتذارًا عن القضية، ودعني أُنظف هذا المُجتمع من أوساخه»، قال ونهض من مقعده مُتجهًا نحو باب الغرفة، فتحه ثم التفت إلى المُقدم "هشام" مرة أخيرة، «يُمكنني فعل أشياء لا تتخيلها يا سيادة المُقدم، ولكني أُحاول الإصغاء إلى صوت ضميري، حاول أنت أيضًا الإصغاء إلى ما يُمليه عليك ضميرك»، قالها وانصرف.

22

زيارتي إلى الضابط المُكلف بالقبض عليّ كانت ضرورية جـــدًّا، فبعدما أخبرتني "سوسن" عنه وعن طيبته وأخلاقه، لم يكُن بمقـــدوري قتله إذا ما اضطررتُ لذلك، كل ما فعلته هو مُحاولة تحذيره بالابتعاد عني، فما أُحاول فعله هو تطبيق قانون السماء وعدالتها، وما حاولتُ قتل أي بريء.

الجميع ينظرون إلى عامل النظافة على أنه الرجُل الأكثر اتـــساخًا الذي تفوح منه الروائح الكريهة التي لا تحتملها أنوفهم التي اعتادت الروائح العطرة، وما يعلمون أن ما يفعله هو تنظيف أوساخهم الـــتي تسببوا في وجودها، كُنتُ أنا عامل النظافة الروحي الذي يراه الجميع بصورة القاتل عديم الرحمة الذي يجد لذته في القتل، بينما ما أفعلـــه

حقيقةً هو تطهير المُجتمع من هذه الأرواح النجسة العفنة التي تشيع في الأرض فسادًا.

كُنتُ جالسًا في المكتبة التي تركها لي أبي "عرفة" أقرأُ كتابًا عن عظمة أهرامات مصر وكيف حيرت العالم في البحث عن كيفية بنائها وكيفية نقل هذه الأحجار التي يبلغ وزنها ملايين الأطنان عندما توقفت تلك السيارة الفخمة أمام واجهة المكتبة وترجلت منها "هايدي" ابنة الوزير المُتعجرفة، راحت تتجول في المكان بحثًا عن أحدث مجلات الموضة التي تهوى اقتناءها، وبين إصبعيها سيجارتها البُنية الرفيعة كريهة المنظر والرائحة.

ذهبتُ لأُعيد الكتاب الذي كُنتُ أقرأ فيه إلى رفه، حين اصطدم كتفي بكتفها من دون قصد، فنظرت لي "هايدي" بعينين ناريتين يتطاير الشرر منهما، «كيف استطعت أن تلمس جسدي بجسدك القذر هذا أيها الحيوان؟!»، قالت بلهجتها الغاضبة المُتعجرفة، فحاولتُ أن أوضح لها الأمر وأنني لم أقصد ذلك، ولكنها صرخت في وجهي للمرة الثانية بغضب شديد، «أنت حيوانٌ لا تعرف كيف تتعاملُ مع سادتك».

لم أحتمل إهانتها لي بهذه الصورة القاسية، «لستُ عبدًا لكِ، وأنتِ لستِ سيدتي، كلنا بشر مُتساوون عند الله، ليس بيننا من هو عبدٌ وسيد»، قُلتُ وقد بدأتُ أشعُر بالغضب يتأجج في داخلي،

ولكنها زادت إمعانًا في إهانتي، «أتعتبرُ نفسك بشرًا بهـذا الوجـه المُخيف القبيح؟!»، قالت وهي تُشير إلى نصف وجهـي المُحتـرق، «أنت لم ترتقِ حتى لتكون عبدًا لي!»، كان غضبها جامحًا لا يُمكـن السيطرةُ عليه، حاولتُ تهدئتها أكثر من مرة، فلم تُفلح مُحـاولاتي، «أنا لم أقصد مُلامسة جسدكِ يا آنستي ولا داعي لما تقولينـه، فأنـا لستُ عبدًا لأحد ولا أستحق ما تتفوهين به من ألفاظٍ نابية»، قُلتُ لها بحِدة مُحاولًا منعها من تكرار ما قالته.

«ألفاظي النابية أيها الحيوان الغبي؟!»، صفعة قوية بيـدها علـى نصف وجهي المُحترق كانت هي القشة التي قصمت ظهـر الـبعير، فانهارت قُدرتي على التحكُم في أعصابي أكثر من ذلك، بسُرعة خاطفة اتجهتُ إلى باب المكتبة فأغلقته علينا من الداخل، «ماذا تفعل أيُهـا الأحمق؟!»، سألت وقد بدأ القلق يتسرب إلى روحها لا تفهـم مـا أفعله، «سأُريكِ من السيد ومن العبد»، ولم أشعُر بنفسـي إلا وأنـا أتغلغلُ في دهاليز عقلها وأُبدل مُعطياته إلى جسدها، «انزعي عنـك كل ملابسك»، كان الأمر أقوى من قُدرتي على السيطرة والتحكُم في نفسي.

أطاعت أمري الذي لا يُمكنها عصيانه بعدما تلاعبـتُ بعقلـها الهش، ورُحتُ أنتهِكُ جسدها من دون إرادةٍ حقيقية أو رغبةٍ مـني، كل ما فعلته كان بدافع الانتقام الأعمى الذي لا يعـرف العقـل،

ولأُثبت لها أنها ليست أفضل مني، ولستُ عبدًا لها، ولو أنني كُنتُ يومًا أُريدُ التحرُّش بها لفعلت ذلك بمُنتهى البساطة.

•

صرخاتها المُتأوهة كانت تزيدني قسوة فيما أفعله، ما كُنتُ أرغبُ في المُتابعة، وما كُنتُ قادرًا على التوقُّف، حقًّا القسوة لا تجلب سوى القسوة، والشر لا يؤتي سوى المزيد من الشر، سقط رأسها الصغير على الأرض ولطخت الأصابع المُختلطة بالعرق وجهها، فقدت وعيها فأفقتُ وعلمتُ أنني في الدقائق الماضية فقدتُ عقلي.

تلك هي مرتي الأولى، شعور غريب مُختلط يغزو قلبي وجسدي، لذة جسدية وقتية مُختلطة بالندم الداخلي، قوة الانتقام المُختلطة بضعف الإرادة، نشوة الانتصار المُختلطة بوهن الهزيمة، نسمة الحياة المُختلطة بسطوة الموت.

ما فعلته مع "هايدي" هو المُفارقة الغريبة بين الحياة والموت، الحياة التي نفذت من جسدي إلى جسدها، والموت الذي تسرب من روحها إلى روحي، دموع غزيرة ذرفتها عيناي، ندم السقوط إلى الهاوية، نهضت "هايدي" مُترنحة لا تعي ما حدث، فلم يستوعب عقلها الأمر بعد، اتجهت إلى باب المكتبة مُحاولة الخروج تتخبط في أرجاء المكان فتتساقط الكُتب من أماكنها، وتساقطت معها القيم والحضارة والتاريخ والفن والأدب والعلم.

شاخت روحي في لحظات، أصبحتُ كهلًا ينتظر الموت وينتظره الموت، "هايدي" العارية لا حيلة لها في الخروج، ألبستها ملابسها

فاستسلمت للمس أصابعي على جسدها وأنا أفعل ذلك، ثم فتحت باب المكتبة وقُدها من يدها إلى باب سيارها، عيناي مُثبتتان على سيارها المُسرعة المُترنحة، إشارة المرور الحمراء التي لم تلتزم "هايدي" بها أو رُبما لم ترها، الشاحنة المُسرعة الآتية من جانبها وهي تدهسها بعجلاتها فتتناثر دماء ابنة الوزير في الأرجاء وتتحول سيارها إلى كومة من الحديد المعجون، ها هي جريمة قتلٍ جديدة ولكن من دون عدالة "عشماوي"، من دون حبل المشنقة، اسم خارج قائمة المحكوم عليهم بالإعدام في المُهمة الموكلة لي من السماء، هذه المرة أنت قاتل ولست قاضيًا، هذه المرة أنت فاسد لا مُخلصًا.

في المساء كُنتُ بحاجة إلى القتل، بحاجة إلى استخدام قُدرة "عشماوي" الخارقة لتُطهرني من دنس القتل هباء، كُنتُ بحاجة إلى الشعور بأنني مازلتُ أُمثل عدالة السماء والسيف الذي وُجِدَ للقصاص من المُفسدين الذين أصبحتُ واحدًا منهم!

حاولتُ وما أفلحتُ، خانتني قُدرتي في التلاعُب بالعقول – أو رُبما أنا من خُنتها – السماء الغاضبة مما اقترفته من ذنب أخذت هبتها التي منحتها لي فلم أستحقها، ضاعت قوتي فما صِرتُ أملُكها، رُبما كانت قُدرتي الخارقة مُقترنة بطاقة الحياة التي أخرجتُها من جسدي لجسد "هايدي" قبل موتها، فذهبت قُدرتي معها بلا عودة، وما صِرتُ أُشكل عدالة الموت للمُفسدين.

أنا ما قتلتُ أحدًا، هُم من ماتوا مُنتحرين، قاموا بعقـد حبـال شهواهم حو أعناقهم وقاموا بشنق أنفُسهم عقابًا لهُم على ما ارتكبوه من فظائع، لستُ قاتلًا، لا بل أنا قاتلٌ لا يستحق الحياة، أنـا مـن تلاعبتُ بعقولهم فجررهم إلى مقصلة الموت، هُم من استحقوا الموت بأفعالهم الدنيئة، قادهم غرائزهم إلى طمـس أصـوات ضـمائرهم فنشروا فسادًا في الأرض كلها، وهل ما فعلته أنا كان مُختلفًا عمـا فعلوه، شهوتي في الانتقام ممن أهانتني أعمت عينيّ عن رؤية الحقيقـة فقتلتُ عمدًا ضميري اليقظ وشنقته بذات الحبـل الـذي كرسـته للمُفسدين.

ما فعلته هو مُحاولة لتطهير البشرية من الفساد وتخليص الناس من الشرور، لا بل ما فعلته هو إضاعة فُرصتهم في التوبة ، فرُبما كان من بينهم من يرجع إلى ضميره ويُصغي إلى صوت الحق، فيُعدل عن أفعاله ويرجع إلى ربه تائبًا، ضيق أُفقي وحدود تفكيري أضاعا أرواحًا كثيرة وألقي بها في جهنم ليلقوا مصيرهم الرهيب، بغبائي حددتُ مسارهم إلى جحيم الشر بعدما كان بمقدورهم تعديل مسارهم إلى جنة الخير.

ما أستحقه في الحقيقة هو الموت الذي حكمـتُ بـه علـى الآخرين، ما أستحقه هو ذات النهاية التي لاقوها على يديّ، يبقـى شيء واحدٌ لا يُمكنني أن أخسره وهو الخوف الذي بثه "عشماوي" في القلوب، كلنا خطاؤون، هذه هي الحقيقة، ولكن بعضنا يُمكنـه

الإصغاء إلى ما تُمليه علينا ضمائرنا فتردعه عن أفعاله، وبعـــضنا لا يُردعه سوى الخوف، والخوف وحده هو ما يُمكنني أن أتركهُ للعالم.

الموت شنقًا هو ما أستحقه، ولكن يجب أن يبدو موتي كجريمة قتل لا انتحار، ذات اللافتة تُعلق على صدري، ذات الطريقة ولكن يجب أن تبدو قتلًا، تُرى ماذا يجب عليّ أن أفعل؟!

***

الكاتب

راقِدًا في فراشي أستجدي نومًا لا يجيء سمعت طرقات على باب الغُرفة، انفتح الباب ودلف منه ذلك الرجُل المُشوه بوجهه نصف المُحترق مُمسكًا بين يديه برُزمة كبيرة من الأوراق، «مؤمن؟! ما الذي أتى بك إلى هُنا؟!لو رأتك زوجتي لـ...»، أشار لي بسبابته كي أصمت، «اطمئن لن تراني زوجتك، أنا من قريحة خيالك ولا أحد يُمكنه رؤيتي غيرك»، قال بنبرته الواثقة المُستفزة.

«وماذا تُريدُ مني في هذه الساعة المُتأخرة من الليل؟»، سألته وأنا لا أعلمُ ما الذي يُريده مني هذا الأبله، ولا كيف أمكنه أن يتجسد ماديًا بهذه الصورة، «مرت أسابيع لم تكتب فيها حرفًا في روايتك، مصيري مُعلق على ما تجود به قريحتك»، قال بغضب عارم وحِدة لم أعهدهُما فيه طوال فترة كتابة الرواية، ووضع الأوراق التي بين يديه أمامي على الفراش، «تفضل، اكتب، أُريدُ أن أعرف ما الذي يجبُ

عليّ فعله»، قال وهو يُناولني قلمًا التقطه من يده، «اسمع يا مؤمن.. معك حق في كُل ما قُلته، من غير اللائق أن أدعك مُعلقًا هكذا، ولكني لا أعمل بهذه الطريقة، لا يُمكنني استجداء الكلمات، فإما وحي أو لا وحي، إذا ما جاء الوحي تنهمر كلماتي كالسيل على الورق، أما إذا رفض الوحي أن يجيء فعليّ حينها أن أبتلع فردتي حذائي وأصمت»، قُلتُ صادقًا ومُتأثرًا بحالته النفسية السيئة.

«حاول من أجلي، أرجوك»، قال مُتوسلًا، فزفرتُ في ضيق وضغطتُ جانب رأسي بظهر القلم في مُحاولة بائسة مني لاستجداء الأفكار، «ماذا لو أنني جعلتك تتفقُ مع سوسن على أن تقتلك وتُنهي عذاباتك؟»، نظر لي باشمئزاز، «يبدو أن عقلك لا يغدو أكثر قيمة من حذائك إذا ما أجبرت نفسك على الكتابة!»، قال بغضب، ثم شعر بأنه أهانني بشكلٍ ما فأطرق برأسه للأرض آسفًا على إهانته لي، «أخبرتك بذلك ولكنك أصررت»، قُلتُ في مُحاولة للدفاع عن نفسي، «ولكن لماذا لا تعجبك الفكرة؟»، سألته.

«سوسن سلكت طريقًا صالحًا بعدما كانت ضائعة، لا تُريد أن تُحولها في النهاية إلى قاتلة، أليس كذلك؟»، أومأتُ رأسي موافقًا «نعم معك حق»، ابتسم في وجهي بسُخرية، «تخل قليلًا عن نهاياتك الكئيبة أو المفتوحة تلك»، قال فبادلته الابتسامة، «دعني أُفكر قليلًا لأرى ما يُمكنني فعله»، قُلتُ، فصمتَ مُحاولًا ألا يُشوش تفكيري، وضعتُ سن قلمي على الورق وبدأت حروفي تتجاور لتُشكل كلمات تتجاور بدورها لتُشكل جُملًا.

عرضتُ ما كتبته عليه، فقرأه بسُرعة مُتلهفًا إلى معرفة ما يجب عليه فعله، وبعدما انتهى من القراءة، «أوافق على هذه النهاية»، قال وبدأ بنقل ما كتبته في مجموعة أُخرى من الأوراق، هأنا أُشعل أصابعي العشر شموعًا لإرضائك»، قُلتُ مازحًا فنظر لي شذرًا وواصل ما يفعله، وبعدما انتهى من الكتابة مد يده لي بالأوراق الأُخرى فأخذهما منه، «ما هذا؟»، سألته، «هذه هي روايتي مُهمة من السماء، قُمتُ بكتابتها أثناء فترة كتابتك لرواية عشماوي، فقط كُنتُ أنتظر ما تجود به قريحتك لكتابة الفصل الأخير فيها»، قال، فنظرتُ له وللأوراق بين يديّ في عدم فهم، «وماذا تُريدني أن أفعل بها؟»، سألته.

«قدمها لدور النشر، أُريدُ أن يعرف العالم كله قصتي، وليعلم الجميع أننا جميعًا خطاؤون، لا يوجد بيننا من هو معصوم من الخطأ، كما لا يوجد بيننا من يُمكنه مُحاسبة الناس على أفعالهم، كل ما نستطيع أن نفعله هو أنْ يُعالج كلٌّ منا أخطاءه ويُقوِّم سلوكه، ونسعى لتحقيق أهدافنا بالطُرق الصحيحة ولا نهتم كثيرًا بما يفعله الآخرون، فلنهتم بما نفعله نحن في سُني أعمارنا الضئيلة، حتى نترُك للعالم من بعدنا بصمةً لا وصمة»، قال، فأومأتُ برأسي مرةً أُخرى بمعنى أنني سأفعل.

سار بخطوات بطيئة مُترددة نحو باب الغُرفة، فعُدتُ إلى فراشي وكأن شيئًا لم يكُن، فالتفت إليّ مرةً أخيرة، «نبيل..»، قال مُناديًا،

فأجبتُ بهمهمة بسيطة، «يا لك من كئيب!»، قال مازحًا والابتسامةُ العريضة تغزو شفتيه، فنهضتُ من فراشي وركضتُ لأحتضنه قبل أن يُغادر حياتي، ولكنه كان قد غادر الغُرفة.

***

23

ركب سيارته مُتجهًا إلى العنوان حيثُ أخبره النقيب "عادل شوشة" بحدوث جريمة "عشماوي" الجديدة فيه، بسُرعة جنونية قاد المُقدم "هشام" سيارته حتى وصل إلى العنوان المقصود، فترجل منها ليجد حشدًا كبيرًا من الناس المُتجمعين إلى جوار الرصيف المُقابل لواجهة واحد من المحال التجارية لبيع الكُتب والمجلات، «كيف حالك يا سيادة المُقدم؟»، قال النقيب "عادل شوشة" الواقف أمام باب المكتبة وهو يستقبله مُصافحًا، «بخير.. ما الأخبار هُنا؟»، سأله المُقدم "هشام" وكله فضول لمعرفة ما حدث، «جاءني اليوم بلاغ من أحد المواطنين يُفيد بانبعاث رائحة كريهة من أحد المحال التجارية لبيع الكُتب، ويشُك الشخص الذي تقدم بالبلاغ في وفاة صاحب المحل الذي يُقيم فيه إقامة كاملة، وذلك لأن المحل لم يفتح أبوابه مُنذُ أربعة

أيام، وهندما حضرتُ إلى هُنا وعاينتُ الواقعة، وجدتُ أنها ذات التفاصيل لجرائم ذلك القاتل المُتسلسل الذي تتولى سيادتك التحقيق في قضيته، فاتصلتُ بك على الفور لتحضر وتُعاين الواقعة بنفسك، تفضل يا سيادة المُقدم»، أشار النقيب "عادل شوشة" إلى المُقدم "هشام" بالدخول، فدخل هذا الأخير إلى مكان الجُثة، وصعقه ما رأى.

جُثة مُنتفخة مُعلقة من رقبتها بحبلٍ غليظ إلى مروحة السقف، واللافتة المُعتادة التي تحمل اسم "عشماوي" موضوعة على صدر الجُثة، أما ما صعقه وجعل الأرض تميد من تحت قدميه هو أن الجُثة كانت لذلك الشاب "مؤمن عرفة" الذي جاء إلى مكتبه الشهر الماضي ليُخبره بأنه هو نفسه "عشماوي" القاتل المُتسلسل الذي يبحثُ عنه.

سارت الإجراءات بشكلها الطبيعي، تم رفع البصمات من مكان الحادث، ومُعاينة المكان، ومن ثم تحويل الجُثة إلى مصلحة الطب الشرعي لبدء عملية التشريح ومعرفة أسباب الوفاة.

لاحظ المُقدم "هشام" هذه المرة عدم وجود المقعد المقلوب الذي اعتاد رؤيته أسفل جُثث ضحايا "عشماوي" مما يعني أن هذا الشاب "مؤمن عرفة" لم يشنق نفسه ولكن هُناك من قتله، وهو "عشماوي" الحقيقي، لم يكُن "مؤمن عرفة" صادقًا إذن فيما قاله عن نفسه بأنه القاتل الذي قام بكل ما سبق من جرائم.

في الأيام القليلة التالية خرج تقرير الطب الشرعي بمُفاجأة مُدوية ضربت بكل ما توصل إليه المُقدم "هشام" عن القاتل الذي يقتل ضحاياه عن طريق التلاعب بعقولهم عرض الحائط، مات "مؤمن عرفة" خنقًا "Strangulation" وليس شنقًا "Hanging" مما يعني أن هُناك من قام بخنقه حتى الموت، ومن ثَمَّ تعليقه إلى حبل المشنقة، هُناك قاتلٌ ما ما زال طليقًا، لم يكُن "مؤمن عرفة" هو "عشماوي".

ضاقت السُبُل أمام المُقدم "هشام" الذي وجد نفسه مرة أخرى في بداية الطريق للبحث عن القاتل الجديد، لا قُدرات خارقة ولا إدراك فائق للحواس، بداية جديدة لقاتل آخر لا يعرف عنه شيئًا، ولا يعرف من أين يبدأ في البحث عنه.

يا لها من قضية شيطانية مُريبة! كُلما تجمعت خيوطها وتوصل فيها إلى نتيجة ما حتى تبدأ في التشكُل كالحرباء بشكلٍ جديد لا يعرف عنه شيئًا.

شهورٌ ستة مرت من دون جريمة جديدة لعشماوي، حُفظ ملف القضية ودوِّنَت ضد مجهول، ولكن المُقدم "هشام" كان واثقًا أنه يومًا ما سيُعيد فتح ملف القضية مع جريمة جديدة لعشماوي القاتل المُتسلسل الذي استطاع أن يتحدى المنطق وقام بتنفيذ الجريمة الكاملة من دون أن يترُك خلفه دليلًا واحدًا.

كان المُقدم "هشام" جالسًا في مكتبه يفُثُ دخان سيجارته حينما سمع طرقات على باب الغُرفة ثم دلف من بابها جُندي الحراسة،

«الصحفية سارة بدران تطلُب مُقابلتك يا سيادة المُقدم»، قال فأشار له المُقدم "هشام" بالسماح لها بالدخول، فخرج من الباب ودلفت منه "سارة" الصحفية التي زارتهُ مُنذُ ما يزيد عن الشهور السبعة، صافحته وجلست في مُقابلته.

«كيف حالك يا سارة؟»، قال المُقدم "هشام" فابتسمت له، «أنا بخير، كيف حالك أنت يا سيادة المُقدم»، أومأ برأسه، «بخير، ما كُنتُ أعتقد أنك ستزورينني ثانية فها هي ستة أشهُر قد انقضت من دون جرائم لعشماوي، رُبما انتهى هذا الكابوس!»، قال فابتسمت ووضعت يدها في حقيبتها وأخرجت منه كتابًا، «معك حق يا سيادة المُقدم رُبما انتهى هذا الكابوس، ولكني أتيتُ اليوم لأعرض عليك شيئًا ما، انظُر ماذا لديّ هُنا»، أشارت إلى الكتاب الذي أخرجته من حقيبتها، «هذه الرواية اشتريتها مُنذُ يومين تقريبًا، يتحدث فيها الكاتب عن جرائم قتل يقوم بها شخصٌ ما، الغريب أن جرائم القتل وشخصيات الرواية كُلها تتفق مع جرائم ذلك القاتل عشماوي حتى أن القاتل في الرواية كان اسمه عشماوي أيضًا!»، مدت يدها بالكتاب فتناوله منها، ونظر إلى غُلافه الذي يُصور شخصًا مُعلقًا من رقبته إلى حبل المشنقة وعلى صدره لافتة تحمل عنوان الرواية الذي هو "مُهمة من السماء" تحته اسم الكاتب الذي هو "مؤمن عرفة".

طغت الدهشة على ملامح وجه المُقدم "هشام" وانعقد لسانه فلم يستطع أن ينبس ببنت شفة، «اقرأ هذا الفصل الأخير يا سيادة المُقدم، إنه غريبٌ بعض الشيء، لا أعرف كيف حصل كاتب الرواية

على هذه الفكرة المجنونة»، قالت "سارة" وهي تمد يدها إلى صفحة في نهاية الكتاب كانت قد قامت بثنيها حتى يُمكنها العودة إليها متى شاءت.

قرأ المُقدم "هشام" الصفحة التي أشارت له "سارة" بقراءتها، ومع كل كلمة يقرؤها كانتا عيناهُ تتسعان أكثر فأكثر...

***

24

الموت كل الموت لكل أعداء الحياة، وأنا كُنتُ عدوًّا لها، وسلبتُ أناسًا كثيرين حياهم التي وهبهم الله إياها، نفخة من الله لطين الأرض وهبت الطين روحًا وجسدًا وإرادة حُرة، ولا يحق لمخلوق سلب ما هو ليس ملكًا له، بل ملك للخالق، أيُ ذنبٍ هذا الذي اقترفته أنا؟! كيف تصورتُ للحظاتٍ أنني أملكُ الحق في تحديد مصائر الناس وإنهاء حياهم بهذه الصورة القاسية؟!

روحي أيضًا لا أملكها ولا يحقُ لي التصرُّف فيها كيفما أشاء، ولكنه الذنب الأخير الذي يُبرر حياةً كاملة من الذنوب، اعتقدتُ أن الله جل جلاله وهبني تلك القُدرة الخارقة في التحكُم بعقول الناس لأكون صوته على الأرض، لأُقيم العدل بين الناس وأقتصَّ من المُجرمين والفاسدين والسارقين والزُّناة والأفاقين والمُنافقين والظالمين.

أما كان بإمكاني تحقيق العدل بصورة أخرى غير تلك التي سلبتني روحي وآدميتي؟! قُدرتي في التلاعب بالعقول كانت تُمكنني من إجبار الظالمين على إعادة حقوق المظلومين، كانت تُمكنني من تقويم سلوك الزُناة والخُطاة وإرشادهم إلى طريق النقاء والطُهر، كانت تُمكنني من إقامة العدالة الحقيقية لو أنني فهمتُ الحقيقة الكاملة وعرفتُ من أنا وكيف أستخدم تلك الهبة التي لا أستحقها استخدامًا صحيحًا.

قُمتُ بربط الحبل الغليظ إلى مروحة السقف وعقدتُ الأنشوطة القاتلة التي حان وقتها في القصاص من ذلك العقل الرهيب الذي سلب الكثيرين حياتهم، عقلي أنا.

علقتُ اللافتة التي ما كانت يومًا رمزًا للعدالة سوى في هذه اللحظات، وضعتُ رأسي داخل أنشوطة المشنقة الرهيبة، ووقفتُ على لوحي الثلج اللذين اشتريتهما لهذا الغرض الوحيد، أن يموت القاتل وتبقى رهبته قائمة في القلوب مُقومة لسلوك الظالمين الذين يصمون آذانهم عن صُراخ المظلومين، الخائفين من الموت الأرضي لا من الموت الأبدي.

واقفًا على لوحي الثلج مُنتظرًا ذوبانهما وإتيان الموت، وعودة الروح إلى خالقها، أرى طيف "جميلة" أم صُبحي زوجة أبي "عرفة" المكلومة تنوح على ولدها الذي أضاع حياته هباءً وآخرته هباء، «يا ابني شبابك زين وخسارة زهر الجناين طاح نواره... يا ابني شبابك زين وأنت زين لولا شبابك ما بكت لي عين».



شُكر خاص

إلى الصديق العزيز السيد العقيد هشام زيدان والصديقين العزيزين الطبيبين الدكتور مينا نادر والدكتور بيشوي إدوارد.

للتواصل مع الكاتب

Nabilsabry17@yahoo.com

www.facebook.com/nabilsabryromans

